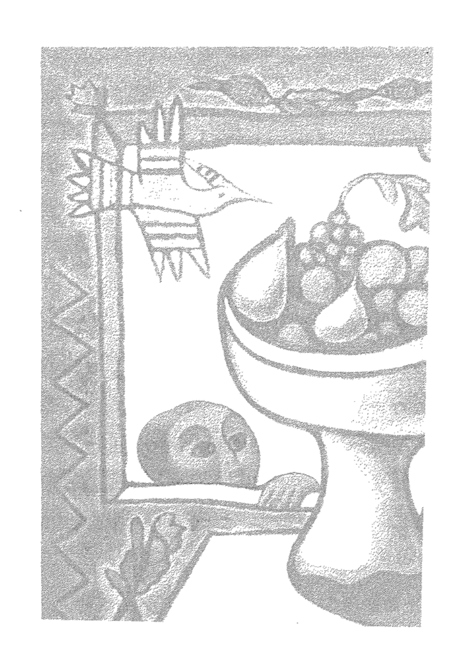
نجيب محفوظ

الشحاذ

الشحاذ



الغلاف والتصميم

للفنان حلمي التوني

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

الطبعة الثانية يوليو ٢٠٠٧

الطبعة الثالثة سبتمبر ٢٠٠٧

الطبعة الرابعة ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠٠٦/٤١٤٣

ISBN 977-09-1549-1

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

نجيب محفوظ

الشحاذ

دار الشروق

١

سحائب ناصعة البياض تسبح فى محيط أزرق، تُظلل خضرة تغطى سطح الأرض فى استواء وامتداد. وأبقار ترعى تعكسَ أعينها طمأنينة راسخة، ولا علامة تدل على وطن من الأوطان، وفى أسفل طفل يمتطى جواداً خشبيا ويتطلع إلى الأفق عارضا جنب وجهه الأيسر وفى عينيه شبه بسمة غامضة. لمن اللوحة الكبيرة يا ترى؟ ولم يكن بحجرة الانتظار أحد سواه. وعما قريب يأزف ميعاد الطبيب الذى ارتبط به منذ عشرة أيام. وفوق المنضدة فى وسط الحجرة جرائد ومجلات مبعثرة، وتدلت من الحافة صورة المرأة المتهمة بسرقة الأطفال. رجع يتسلى بلوحة المرعى. الطفل والأبقار والأفق. رغم أنها صورة زينة رخيصة القيمة ولا وزن إلا لإطارها المذهب المزخرف بتهاويل بارزة. وأحب الطفل اللاعب المستطلع والأبقار المطمئنة ولكن ازدادت شكواه من ثقل جفونه وتكاسل دقات قلبه. وها هو الطفل ينظر إلى الأفق ينطبق على الأرض. دائما ينطبق على الأرض من أى موقف ترصده، فيا له من سجن لا نهائى! وما شأن هذا الجواد الخشبى؟ ولم تمتلئ الأبقار بالطمأنينة؟! ولفت سمعه فى الخارج حركة أقدام ثابتة، ثم ظهر التمرجى عند الباب قائلا:

ـ تفضل.

ترى هل يتذكر رغم مرور ربع قرن من الزمان؟ ها هى حجرة

استقبال الطبيب الخطير، وها هو يقف وسط حجرته باسما، بقامته المتوسطة النحيلة والوجه الغامق السمرة والعينين البراقتين والشعر القصير المفلفل. لم يكد يتغير عما كان فى حوش المدرسة. وما زالت زاوية فمه تنحرف فى سخرية مذكرة بمرحه المطبوع الذى كان يضاهى تفوقه الحاسم.

ـ أهلا عمر، تغيرت حقا ولكن إلى أحسن!

ـ حسبتك لن تذكرنى!

وتصافحا بحرارة.

ـ ولكنك عملاق بكل معنى الكلمة، كنت طويلا جداً وبالامتلاء صرت عملاقا..

وكان يرفع رأسه إليه وهو يحادثه فابتسم عمر فى سرور وردد:

ـ حسبتك لن تذكرنى!

ـ أنا لا أنسى أحدا فكيف أنساك أنت؟!

تحية كريمة من طبيب خطير. وكثيرون يسمعون عن الطبيب الناجح ولكن هل يعرف المحامى الفذ إلا أصحاب القضايا؟!

وضحك الطبيب وهو يتفحصه وقال:

ـ لكنك سمنت جدا. كأنك مدير شركة من العهد الخالى ولا ينقصك إلا السيجار.

ضحكت أسارير الوجه الأسمر المستطيل الممتلئ. وفى شىء من الارتباك ثبت نظارته فوق عينيه وهو يرفع حاجبيه الكثيفين.

ـ إنى سعيد بلقياك يا دكتور.

ـ وأنا كذلك وإن تكن مناسبة رؤيتى ليست بالسارة عادة.

وتقهقر إلى مكتبه المختفى تحت أطلال من الكتب والأوراق والأدوات المكتبية النفيسة ثم جلس وهو يشير إليه بالجلوس:

ـ فلنؤجل حديث الذكريات حتى نطمئن عليك.

وفتح دفترا وأمسك بالقلم:

ـ الاسم عمر الحمزاوى، محام، والسن؟

وضحك الطبيب عاليا وهو يقول مستدركا:

ـ لا تخف، الحال من بعضه!

ـ ٤٥ عاما.

ـ على أيام المدرسة كان الشهر يعتبر فارقا فى العمر له خطورته أما الآن فيا قلبى لا تحزن، هل من أمراض خاصة فى الأسرة؟

ـ كلا، إلا إذا اعتبرت الضغط بعد الستين مرضا خاصا.

وشبك الطبيب ذراعيه وقال بجدية:

ـ هات ما عندك..

مسح عمر على شعره الغزير الأسود الذى لا ترى شعيرات سوالفه البيضاء إلا بحد البصر وقال:

ـ لا أعتقد أنى مريض بالمعنى المألوف.

فازداد اهتمام الطبيب وهو يمعن فيه النظر باستمرار.

ـ أعنى أنى لا أشكو عرضا من الأعراض المرضية المألوفة.

ـ نعم.

ـ ولكنى أشعر بخمود غريب..

ـ أهذا كل ما هنالك؟

ـ أظن هذا.

ـ لعله من الإجهاد المستمر.

ـ ربما، ولكنى غير مقتنع تماما..

ـ طبعا وإلا ما شرفتنى..

ـ الحق أنه نتيجة لذلك الخمود ماتت رغبتى فى العمل بحال لا تصدق . .

ـ استمر . .

ـ ليس تعبا بالمعنى المألوف، يخيل إلى أنى ما زلت قادرا على العمل ولكنى لا أرغب فيه، لم تعد لى رغبة فيه على الإطلاق، تركته للمحامى المساعد فى مكتبى، وكل القضايا تؤجل عندى منذ شهر . .

ـ ألم تفكر فى القيام بإجازة؟

فواصل حديثه وكأنه لم يسمعه :

ـ وكثيرا ما أضيق بالدنيا، بالناس، بالأسرة نفسها، فاقتنعت بأن الحال أخطر من أن أسكت عنها .

ـ إذن فالمسألة ليست . .

ـ المسألة خطيرة مائة فى المائة، لا أريد أن أفكر أو أن أشعر أو أن أتحرك، كل شيء يتمزق ويموت، فخطر لى على سبيل الأمل أننى سأجد لذلك سببا عضويا .

قال الطبيب باسما :

ـ ما أجمل أن تحل مشاكلنا الخطيرة بحبة بعد الأكل أو ملعقة قبل النوم!

مضى به إلى حجرة الكشف . وأخذت عينة من البول ثم خلع عمر ملابسه ورقد على السرير الطبى . وتتابعت الأوامر فأبرز لسانه، وفتح بشد الجفنين عينيه، ونقرت الأصابع الرشيقة على مواضع فى الصدر والظهر، وضغطت بشدة على أماكن فى البطن، واستعملت السماعة ومقياس الضغط، وتنفس بعمق، وسعل، وهتف : آه من الحلق مرة ومن الأعماق مرة أخرى . وجعل يختلس النظرات إلى وجهه ولكنه لم

يقرأ شيئا. وفرغ الرجل من كشفه فسبقه إلى مكتبه وما لبث أن لحق به. واطلع الطبيب على نتيجة التحليل ثم فرك يديه وابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- عزيزى المحامى الكبير، لا شىء ألبتة.

تحرك جناحا أنفه الطويل الحاد وازداد وجهه توردا:

- ألبتة؟!

- ألبتة!

ولكنه سرعان ما قال بحذر:

- أخشى أن يكون الأمر أخطر مما تتصور!

فقال الدكتور ضاحكا:

- ليست قضية أهولها لمضاعفة الأجر!

فضحك عمر وهو يرمقه بأمل فأكد الآخر قائلا:

- حسن، إذن فاعلم أنه لا شىء..

فتساءل عمر فى قلق:

- هل يقضى علىّ بأن أسجن فى عيادات الطب النفسى؟

- لا نفسى ولا دياولو!

- حقّا؟

- أجل، إنه مرض برجوازى إن جاز لى أن أستعير اصطلاحا حديثا مما يستعمل فى جرائدنا، ليس بك من مرض..

ثم بتمهل:

- ولكنى أرى فى الأعماق مقدمات لأكثر من مرض، والحق أنك جئت فى الوقت المناسب، متى ألح عليك الخمود؟

- منذ شهرين وربما أكثر قليلا ولكن الشهر الأخير كان محزنًا حقا.

ـ دعنى أصف لك حياتك كما أستنبطها من الكشف، أنت رجل ناجح ثرى، نسيت المشى أو كدت، تأكل فاخر الطعام وتشرب الخمور الجيدة. وترهق نفسك بالعمل لحد الإرهاق، ودماغك دائما مشغول بقضايا الناس وأملاكك، وأخذ القلق يساورك على مستقبل عملك ومصير أموالك.

ضحك عمر بفتور وقال:

ـ صورة صادقة فى جملتها ولكنى لم أعد أهتم بشىء.

ـ حسن، لا شىء بك، ولكن العدو رابض على الحدود.

ـ كإسرائيل؟

ـ وعند الإهمال سيدهمنا الخطر الحقيقى.

ـ دخلنا الجد!

ـ اعتدل فى الطعام.. قلل من الشراب.. التزم برياضة منتظمة كالمشى.. فلن تلقى ما تخشاه.

وانتظر وهو يفكر ولكن الدكتور لم يحرك ساكنا فسأله:

ـ ألن تكتب لى دواء؟

ـ كلا، لست قرويا لأقنعك بأهميتى بدواء لا يضر ولا يفيد، الدواء الحقيقى بيدك أنت وحدك..

ـ وهل أعود كما كنت؟

ـ وأحسن، أنا رغم إرهاقى بالعمل ما بين الكلية والمستشفى والعيادة أمشى كل يوم نصف ساعة على الأقل، وأتبع نظاما مناسبا فى الغذاء.

ـ لم أشعر يوما أنى تقدمت فى السن.

ـ الكبر مرض، ولن تشعر به ما دمت تدفعه بحسن السلوك، هنالك شبان فوق الستين، المهم أن نفهم حياتنا.

ـ أن نفهم حياتنا؟!

ـ أنا لا أتفلسف طبعا .

ـ ولكنك تداوينى بنوع من الفلسفة ، ألم يخطر لك يوما أن تتساءل عن معنى حياتك؟

فضحك الدكتور عاليا ثم قال :

ـ لا وقت عندى لذلك ، وما دمت أؤدى خدمة كل ساعة لإنسان هو فى حاجة ماسة إليها فما يكون معنى السؤال؟!

ثم بجدية ودود :

ـ قم فى إجازة .

ـ إجازتى متقطعة عادة كأنها ويك إند يستمر طيلة شهور الصيف .

ـ لا ، خذ إجازة طويلة بالمعنى ، ومارس نظام معيشتك الجديدة ، وسوف تبدأ بعد ذلك متجددا .

ـ هذا ممكن .

ـ توكل على الله . ليس بك إلا نذير من الطبيعة فاستمع إليه ، وعليك أن تنقص وزنك عشرين كيلو ولكن على مهل ودون عنف .

ضرب على ركبتيه وانحنى انحناءة خفيفة تؤذن بالتأهب للقيام ولكن الدكتور بادره :

ـ مهلا ، أنت آخر زوار اليوم فلنجلس قليلا معا .

اعتدل فى جلسته باسما . دكتور حامد صبرى إنى أعرف ما تريد . تريد طى ربع قرن من الزمان . وأن تضحك من أعماق قلبك مرة أخرى .

ـ ما أجمل أيام زمان!

ـ الحقيقة يا دكتور ما أجمل كل زمان باستثناء «الآن».

ـ صدقت، التذكر شيء والمعاناة شيء آخر.

ـ ثم يتبدد كل شيء بلا معنى.

ـ لكننا نحب الحياة، هذا هو المعنى.

ـ شد ما كرهتها في الأيام الأخيرة!

ـ وها أنت تبحث عن الحب المفقود، خبرنى أما زلت تذكر أيام السياسة والإضراب والمدينة الفاضلة؟

ـ طبعا، وقد ولت جميعا، ولم يبق إلا سوء السمعة.

ـ ومع ذلك فقد تحقق حلم كبير، أعنى الدولة الاشتراكية.

ـ نعم.

الدكتور وهو يبتسم:

ـ وكنت تظهر لنا بأكثر من وجه، الاشتراكى المتطرف، المحامى الكبير، ولكن وجها منك رسخ فى ذاكرتى أقوى من أى سواه، هو عمر الشاعر!

ابتسم ابتسامة عصبية ليدارى امتعاضا مباغتا وتمتم:

ـ يا لسوء الحظ!

ـ هجرت الشعر؟

ـ طبعا.

ـ ولكنك طبعت ديوانا فيما أذكر.

فخفض عينيه حتى لا يقرأ فيهما توتره وضيقه وقال:

ـ عبث طفولة لا أكثر ولا أقل.

ـ بعض زملائى من الأطباء الشعراء يضحون بالطب فى سبيل الشعر..

ذكرى غبراء كالطقس المنحوس فمتى يسكت عنها!

وواصل الدكتور:

ـ وأذكر من أقراننا القدامى مصطفى المنياوى، ماذا كنا نطلق عليه؟

ـ الأصلع الصغير! ما زلنا أصدقاء لا نكاد نفترق، وهو اليوم صحفى نابه ومؤلف إذاعى تليفزيونى..

ـ زوجتى مغرمة به جداً، وقد كان متحمسا مثلك، ولكن رأس الحماس كان عثمان خليل بلا جدال..

تجهم وجه عمر. لطمته الذكرى بقبضة من حديد ثم غمغم:

ـ إنه فى السجن!

ـ نعم، عُمْرٌ طويل فى السجن، أظنه كان زميلك فى كلية الحقوق؟

ـ تخرجنا فى عام واحد، أنا ومصطفى وعثمان، الحق أنى لا أحب الماضى!

فقال بنبرة ختامية:

ـ فلتحب المستقبل.

ثم وهو ينظر فى ساعته:

ـ من الآن فصاعدا أنت الطبيب.

فى حجرة الانتظار رفع عينيه مرة أخرى إلى الصورة، لم يزل الطفل ممتطيا جواده الخشبى متطلعا إلى الأفق. وهذه البسمة الغامضة فى عينيه أهى للأفق؟ وما زال الأفق منطبقا على الأرض، فماذا يرى الشعاع الذى يجرى ملايين السنين الضوئية؟ وثمة أسئلة بلا جواب فأين طبيبها؟

وفى الخارج أمام العمارة بميدان سليمان باشا ركب الكاديلاك السوداء فتحركت به كباخرة عروس النيل.

٢

الوجوه تتطلع إليه مستفسرة . حتى قبل أن ترد تحيتك . حنان رقيق مخلص ولكن ما أفظع الضجر ! الحموضة التى تفسد العواطف الباقية . ولاحت من ورائهم الشرفة الكبيرة المطلة على النيل من الدور الرابع . . وتبدى عنق زوجك من طاقة فستانها الأبيض غليظا متين الأساس . واكتظت وجنتاها بالدهن ، وقفت كتمثال ضخم ملىء بالثقة والمبادئ ، وضاعت عيناها الخضراوان تحت ضغط اللحم المطوق لهما . أما ابتسامتها فما زالت تحتفظ ببراءة رائقة ومحبة صافية .

ـ قلبى يحدثنى بأن كل شىء طيب .

إلى جانبها وقف مصطفى المنياوى فى بدلته الشركسكين رافعا نحوك وجهه البيضاوى الشاحب وعينيه الذابلتين وصلعته التاريخية ، وقد بدا ضئيلاً فى نحافته إلى جانب الزوجة المحكمة البناء .

ـ حدثنا عن زميل المدرسة ، ماذا قال وهل عرفك؟

واعتمدت بثينة بكوعها على كتف تمثال برنزى لامرأة باسطة الذراعين فى هيئة مرحبة ، وتطلعت إلى أبيها فى تشوق بعينيها الخضراوين ، وهى تكرر صور أمها عندما كانت فى الرابعة عشرة ، بقامتها الرشيقة ، ولكن يبدو أنها لن تتعملق مع الأيام ولن تسمح للدهن بأن يغطى على صفائها . تساءلت بنظرة كما تتفاهم معك كثيرا دون كلام ، أما جميلة ـ أختها الصغيرة ـ فعكفت على دبتها بين مقعدين كبيرين ولم تهتم بالقادم .

وجلسوا جميعا ثم قال بهدوء :

ـ لا شيء .

هتفت زينب بنبرة جامدة :

ـ الحمد الله ، طالما قلت إنك بحاجة إلى الراحة .

فأحنقه انتصارها بلا سبب ، وخاطب مصطفى ـ مشيرا إلى زوجته ـ قائلا :

ـ هى المسئولة أولا وأخيرا !

ولما فرغ من تلخيص رأى الدكتور عاد يؤكد رأيه :

ـ هى المسئولة أولا وأخيرا !

فقال مصطفى بحبور :

ـ يا له من علاج هو باللعب أشبه !

ثم مستدركا فى أسف :

ـ لكن الطعام والشراب ! . . اللعنة على الزمن . .

لمَ تلعن وأنت لم تصب بسوء؟ ماذا يفعل المقبل على رحلة غامضة؟ ! الحائر بين الحب والضجر . الذى لم يحدث نفسه بعد بطريقة شافية . وقال لمصطفى :

ـ الدكتور حامد سأل عن الأصلع الصغير . .

ثم بعد أن سكتت عاصفة الضحك :

ـ وهنيئا لك إعجاب زوجته !

ابتسم مصطفى فى سرور صبيانى لمعت به أسنانه الناصعة البياض :

ـ أصبحت بفضل الإذاعة والتليفزيون كالوباء ولابد أن أصيب ضعيفى المناعة .

وذكر الآخر فى السجن . حتى حساسية الضمير يدركها الضجر يوم

احترقت بلهيب الخطر. لكنه لم يعترف. رغم الأهوال لم يعترف. وذاب فى الظلمات كأن لم يكن. وأنت تمرض فى الترف. وتنهض الزوجة رمزا للمطبخ والبنك. فسل نفسك ألا يضجر النيل تحتنا.

ـ بابا، هل نستعد للسفر؟

ـ سنمرح كثيرا وسوف أعلم أختك السباحة كما علمتك فيما مضى..

ـ حتى البراميل!

ها هى أمك تحاكى البراميل. والأفق يحاكى السجن. والحرية استكنت وراء الأفق. ولم يبق من أمل إلا الضمير المعذب. وقال مصطفى:

ـ زوجى تفضل رأس البر للأسف ومثلى لن يظفر بإجازة شهر كامل إلا إذا أصيب بسرطان ممتاز..

وتساءلت جميلة رافعة رأسها عن الدبة:

ـ متى نسافر يا بابا؟

ولاح له مصطفى كنصب تذكارى للحب والزواج. كان المشير والمعين والشاهد. وكل يوم يؤكد صداقته له وللأسرة. ولم يدر شيئا بعد عن المياه التى تجرف قاع النهر.

ـ وذكرنى الدكتور بأيام الشعر!

فضحك مصطفى قائلا:

ـ الظاهر أنه لم يسمع عن روائعى الدرامية الحالية؟

ـ وددت لو أحكى له قصتك مع الفن.

ـ ترى هل يؤمن النطاسى الكبير بالفن؟

ـ زوجته مغرمة بك، ألا تقنع بذلك؟

ـ إذن فهى مغرمة باللب والفشار .

وكانت زينب تراقب السفرجى من خلال الديكور المقوس وما لبثت أن قالت :

ـ هلموا إلى العشاء .

وأعلن عمر أنه سيكتفى بشريحة من صدر الدجاج وفاكهة وكأس واحدة من الويسكى فتساءل مصطفى :

ـ والبطارخ على سبيل المثال هل ألتهمها وحدى؟

وراح مصطفى يتحدث عن إفطار مستر تشرشل الذى نوهت به إحدى الصحف فى أثناء زيارته لقبرص . وقد تردد قليلا عند بدء الطعام ثم ما لبث أن أكل وشرب بلا حساب . ولم تستطع زينب كذلك أن تقاوم الإغراء وشربت زجاجة من بيرة ، وواظبت بثينة على اعتدالها التى تعتبره أمها نوعا من الاعوجاج . وقال مصطفى :

ـ الطعام أجدر من الجنس بتفسير السلوك البشرى . .

فنسى عمر نفسه وقال بمرح ولأول مرة :

ـ يخيل إلى أنك مصاب بعقدة الدجاج .

وعقب العشاء لم يجتمع شملهم أكثر من نصف ساعة نامت بعدها جميلة ، ومضت الأم وبثينة إلى زيارة فى نفس العمارة فخلا عمر إلى مصطفى فى الشرفة الكبيرة حيث استقرت بينهما زجاجة ويسكى ووعاء به ثلج فوق منضدة زجاجية السطح . ولم تند عن الأشجار حركة واحدة . وانتشرت حول المصابيح غلالة ترابية . وبدا النيل من ثغرات أعالى الشجر ساكنا هامدا شاحبا معدوم المرح والمعنى . وشرب مصطفى وحده وتمتم باستياء :

ـ يد واحدة لا تصفق .

فأشعل عمر سيجارة وهو يقول :

ـ ما أفظع الجو! لم أعد أحب شيئا حبا خالصا .

فقال مصطفى ضاحكا :

ـ أذكر أنك كرهتنى يوما ما . .

فقال دون توقف عند قوله :

ـ أخشى أن يتكرر موقفى تجاه العمل إلى ما لا نهاية .

ـ عليك بالرجيم والرياضة ، ولن يهون عليك أن تخون بثينة وتقع فى اليأس .

ـ سوف أشرب كأسا أخرى .

ـ لا بأس ، ولكن كن أكثر حزما فى الإسكندرية .

ـ تقول إننى كرهتك يوما ما . أنت كاذب كأكثر أهل صناعتك!

ـ كنت تضيق بى على عهد إيمانى الشديد بالفن .

ـ كنت وقتذاك أعانى نزعة من نفسى .

ـ أجل ، كنت تقاتل حبه الكامن فيك وتهجره بقسوة . وكنت أنا فى ذلك الوقت وجها من وجوهه جديرا بإثارة الشجون .

ـ ولكنى لم أكرهك ، وجدتك فقط ضميرا معذبا .

ـ وقد احترمت أزمتك بعقل متسامح . وصممت على الاحتفاظ بك وبالفن معا . .

ثم وهو يضحك :

ـ ولعلى أرحتك كثيرا عندما قررت نبذ الفن بقوة مذهلة ، وها أنا أبيع اللب والفشار عن طريق الصحف والإذاعة والتليفزيون على حين تنهض أنت قمة من قمم المحاماة فى ميدان الأزهار!

ذكريات معادة . كالقيظ والغبار . دورات محكمة الإغلاق . والطفل الباسم يتوهم أنه يمتطى جوادا حقيقيا .

ـ ضجر يضجر اضجر فهو ضجر وهى ضجرة والجميع ضجرون وضجرات.

ـ الرجيم والرياضة!

ـ يا لك من مضحك!

ـ هى رسالتى فى الحياة، التسلية، والجمع تسليات، قديما كان للفن معنى حتى أزاحه العلم من الطريق فأفقده كل معنى..

ـ أما أنا فقد نبذته دون تأثر بالعلم..

ـ إذن لماذا نبذته؟

ماكر كالقيظ. وهذا الليل لا شخصية له. وضجيج الطريق ولا طرب. الماكر يسأل وهو يعلم.

ـ دعنى أسالك أنت عن السبب؟

ـ قلت وقتذاك إنك تريد أن تعيش وأن تنجح..

ـ إذن لماذا طرحت السؤال؟

ها هى نظرة اعتراف تقلق فى عينيه الذابلتين من رمد قديم.

ـ أنت نفسك تنبذه بسبب العلم وحده!

ـ زدنى علما؟

ـ عجزت عن أن تحتفظ له بمكانة محترمة على مستوى العلم!

فضحك مصطفى بصفاء مغسول بالويسكى وقال:

ـ لا تخلو حركة هروبية من فشل، ولكن صدقنى أن العلم لم يبق شيئا للفن، ستجد فى العلم لذة الشعر ونشوة الدين وطموح الفلسفة، صدقنى أنه لم يبق للفن إلا التسلية، وسينتهى يوما بأن يصير حلية نسائية مما يستعمل فى شهر العسل.

ـ ما أجمل أن أسمع ذلك! انتقاما من الفن لا حبا فى العلم.

ـ اقرأ أى كتاب فى الفلك أو فى الطبيعة أو فى أى علم من العلوم وتذكر ما تشاء من المسرحيات أو دواوين الشعر ثم اختبر بدقة إحساس الخجل الذى سيجتاحك . .

ـ ما أشبه هذا الشعور بما ينتابنى عندما أفكر فى القضايا والقانون!

ـ هذا الشعور المخجل لا يعانيه إلا الفنان المنبوذ من الزمن .

فتثاءب عمر ثم قال :

ـ اللعنة ، إنى أشم فى الجو شيئا خطيرا ، ويرعبنى إحساس حركى داخلى بأن بناء قائما سيتهدم .

ملأ مصطفى كأسا جديدة وقال :

ـ لن نترك بناء كى يتهدم .

فمال نحوه مقطبا وسأله :

ـ ماذا تظن بى؟

ـ الإجهاد والتكرار والزمن .

ـ وهل فى الرجيم والرياضة الكفاية؟

ـ كل الكفاية ، اعتقد ذلك من كل قلبك . .

٣

من الآن فصاعدا أنت الطبيب . فأنت حر . والفعل الصادر عن الحرية نوع من الخلق . حتى ولو لم يكن مقاومة مستمرة لشهوات البطن . ولنقل إن الإنسان لم يخلق ليكتظ بالأطعمة وبتحرر المعدة تتحرر الروح كذلك وتحلق . لذلك ترق السحب وترنم عواصف أغسطس الصاخبة . ولكن ما أشد الزحام والرطوبة ورائحة العرق!

وأجهدك المشى وناءت به قدماك كأنما تتعلمه لأول مرة. والأعين ترمق العملاق وهو يوسع الخطى حتى ينال منه التعب فيجلس على أول أريكة تصادفه على طريق الكورنيش. وعيناك ترمقان الناس بعد عمى ربع قرن. هكذا شهد الشاطئ مولد آدم وحواء ولكن لا يدرى أحد من سيخرج من الجنة. وقديما قطع الشاب الطويل النحيل ابن الموظف الصغير القاهرة طولا وعرضا على قدميه دون تذمر. وسلسلة طويلة من آبائه وأجداده تهرأت أقدامهم من معاندة الأرض ثم تساقطوا من الإعياء. وقريبا سيخرج الماضى من السجن فيضاعف عذاب الوجود.

ـ عثمان، لماذا تنظر إلىّ هكذا؟

ـ ألا تريد أن تلعب الكرة؟

ـ أنا لا أحب الرياضة.

ـ لا شىء غير الشعر؟!

وأين المهرب من نظراتك الثاقبة؟ وما الجدوى من مجادلتك؟ وأنت تعلم أن الشعر هو حياتى وأن تزاوج شطرين ينجب نغمة ترقص لها أجنحة السماوات.

ـ أليس كذلك يا مصطفى؟

وهتف المراهق الأصلع:

ـ هذا الوجود من حولنا ليس إلا تكوينا فنيا..

ويوما هتف عثمان فى حال من التجلى:

ـ عثرت على الحل السحرى لجميع المشاكل..

واندفعنا برعشة حماسية إلى أعماق المدينة الفاضلة. واختلت أوزان الشعر بتفجرات مزلزلة. واتفقنا على ألا قيمة ألبتة لأرواحنا. واقترحنا جاذبية جديدة غير جاذبية نيوتن يدور حولها الأحياء والأموات فى توازن خيالى لا أن يتطاير البعض ويتهاوى الآخرون. وعندما اعترضتنا

دورة فلكية معاكسة انتقلنا من خلال الحزن والفشل إلى المقاعد الوثيرة، وارتقى العملاق بسرعة فائقة من الفورد إلى الباكار حتى استقر أخيرا فى الكاديلاك، ثم أوشك أن يغرق فى مستنقع من المواد الدهنية.

وها هى الشماسى تترامى ملتصقة الشراريب فتكون قبة هائلة دانية مختلطة الألوان، تستلقى تحتها الأبدان شبه العارية. وتنتشر فى الجو رائحة آدمية عميقة الأثر فى الحواس مذابة فى رائحة البحر المتحدية تحت شمس تخلت عن بطشها. ووقفت بثينة بقدها الممشوق، مبللة الجسد، محمرة الذراعين والساقين، مدسوسة الشعر فى غطاء أزرق من النايلون، مفترة الثغر لفرحة الشاطئ. وأنت شبه عار، مغطى الصدر بدغل من الشعر الكثيف الأسود، وقد استكنت بين ساقيك جميلة وهى تبنى هرما من الرمال. واضطجعت زينب على مقعد جلدى طويل وراحت تطرز أفواف وردة على رقعة كانفاه، متباهية بتضخم صحى فلم تعدم نظرات مراهقة بلهاء تحوم حول صدرها الناهض.

عزيزى مصطفى. قرأت تعليقاتك الفنية الأسبوعية. بديعة ولاذعة وموحية. تقول إنك بائع لب وفشار؟ مهلا، لكنك من أصل كريم، وصاحب قلم تمرس طويلا بالنقد الجدى والمسرحى، فحتى تسلياتك لها نكهة خاصة. أشكرك على سؤالك عنا ولكن خطابك جاء موجزا لدرجة مزعجة ولعلك اعتبرته تكملة شكلية لمقالاتك ولكنى فى مسيس الحاجة إلى ثرثرة لا نهائية. زينب عال وهى تقرئك السلام وتذكرك بالدواء الذى رجتك أن تحصل عليه من الخارج بواسطة أى من زملائك الرحل. متاعب مصرانها هينة فى رأيى ولكنها مغرمة بالدواء كما تعلم.. بثينة سعيدة وكم أود أن أتسلل إلى عقلها ولكن أسعدنا بغير جدال هى جميلة التى لا تفهم شيئا بعد. ولو أنك رأيتنى لدهشت للتقدم الذى أحرزته فقد نقصت ثمانية كيلو ومشيت آلاف الكيلو مترات وضحيت بأطنان من اللحوم والبطارخ والزبد والبيض وعرفت الاشتياق

إلى الطعام بعد شبع طويل لدرجة الموت. ولأنك بعيد فإنني لا أجد من أحادثه كما أحب ولذلك كثيرا ما أحدث نفسي. كلام زينب أعقل مما يجب، لماذا يثيرني الكلام العاقل في هذه الأيام؟ الشخص الوحيد الذي أعجبني حديثه رجل مجنون، يرفع يده بالتحية على طريقة الزعماء طوال الطريق. يلقي خطبا عجيبة، وقد التقيت به فيما وراء شاطئ جليم بكيلو على الأقل فبادرني:

ـ ألم أقل لك؟

فأجبته باهتمام:

ـ فعلا..

ـ ولكن ما الفائدة؟.. ستمتلئ المدينة غدا بسمك موسى ولن تجد موضعا لقدم.

ـ على البلدية أن...

لكنه قاطعني بحدة:

ـ لن تفعل البلدية شيئا، سوف ترحب به تشجيعًا للسياحة، وسوف يتكاثر بصورة مذهلة حتى يضطر السكان الأصليون للهجرة فيمتلئ الطريق الزراعي بطوابير المهاجرين ورغم ذلك كله سيواصل ثمن السمك صعوده..

وتمنيت أن أتسلل إلى رأسه أيضا. لغته لا تقل غرابة عن لغة العلماء الأفذاذ أصحاب المعادلات، وما أضيعنا نحن العقلاء بين الاثنين، نحن الذين نعيش في السماجة المجسمة، لا نعرف لذة الجنون ولا أعاجيب المعادلات. رغم ذلك فأنا رب أسرة سعيدة. تعال وشاهدني وأنا أناجي بثينة على حين تهاجمنا جميلة بالرمال، وبيتنا في جليم مريح جداً وحنيني إلى الويسكي يشتد بصورة ملحوظة. وأمس ونحن في الكابينة مساء ترامى إلينا صوت جارنا وهو يتحدث قائلا:

ـ العمارات ستؤمم .

اصفرّ وجه زينب وحدجتنى بنظرة استغاثة فقلت لها :

ـ لدينا من المال الشىء الكثير . .

فتساءلت :

ـ وهل تنجو الأموال؟

ـ لقد تحصنا ضد القدر بتأمينات شتى . .

فراحت تتساءل فى قلق :

ـ ومن أدرانا؟

فقاطعتها :

ـ بالله خبرينى كيف سمنت إذن لهذا الحد؟ !

فهتفت بى :

ـ كنت فى شبابك مثلهم لا تتكلم إلا عن الاشتراكية، وهى ما زالت فى دمك!

ثم كررت على أن أذكرك بالدواء . مصطفى أنا لا يهمنى شىء، لا يهمنى شىء صدقنى، لا أدرى ماذا حصل لى، لن يهمنى شىء، المهم عندى أن نلتقى لنستأنف هذرنا ومناقشاتنا الجميلة التى لا معنى لها . وقد رمت لى الصدفة بحديث غرامى فى الظلام دون أن يفطن لوجودى أصحاب الشأن . قال الرجل :

ـ عزيزتى نحن منحدرون إلى خطر مؤكد . .

فقالت المرأة :

ـ هذا يعنى أنك لا تحبنى .

ـ لكنك تعلمين تماما أننى أحبك .

ـ إذا تكلمت بعقل فهذا يعنى أنك لم تعد تحبنى .

ـ ألا ترين أننى مسئول وأننى جاوزت الشباب؟

ـ قل إنك لم تعد تحبنى . .

ـ سوف نهلك معا ونخرب بيتنا . .

ـ ألا تكف عن المواعظ؟

ـ لك زوجك وبناتك ولى زوجتى وأبنائى . .

ـ ألم أقل لك إنك لم تعد تحبنى؟

ـ ولكننى أحبك .

ـ إذن فلا تذكرنى بغير الحب .

وابتعدت وأنا أتخيل الدراما الممتعة الفاضحة وأضحك لجرأة المرأة وتهافت الرجل . ولكنهما ذكرانى بصديق قديم اسمه الحب . يا إلهى ما أطول العمر الذى مضى دون حب! وماذا بقى لنا منه عدا ذكريات محنطة؟! كم أتمنى أن أتسلل إلى قلب عاشق . وأنا كما تعلم لم أحب فى حياتى سوى زينب ولكن كان ذلك منذ عشرين عاما . وما أذكره من ذلك التاريخ حركات ومواقف لا مشاعر وانفعالات . وأذكر أننى قلت يوما «عيناها تصعقاننى» وأذكر أنك لم تتخل عنى أبدا . وأن حالتى كانت جنونية . ولكن ذكرى الجنون غير الجنون نفسه . كنت محموم الفكر بركانى القلب ساهر الليل . ورفعنى العذاب إلى الشعر وسحت من عينى دموع وتوثقت أسبابى بالسماء ولكن كل أولئك ذكريات محنطة . وها أنا اليوم أكافح للتملص من المواد الدهنية ولا أرى فى زينب العزيزة إلا تمثالا لوحدة الأسرة والبناء والعمل . وثق من أنه لا يهمنى شىء . فليأخذوا العمارات الثلاث والأموال السائلة . ولن أزعم أننى أستهين بذلك التأثير من المبادئ التى أوشكت يوما أن تقذف بنا جميعا إلى السجن مع عثمان ، فأيام الجهاد نفسها لم تعد إلا ذكريات محنطة ، ولكنى لا أدرى ماذا حل بى أو ماذا غيرنى ، فأبشر يا عزيزى

بأننى أتقدم نحو شفاء جسمانى واضح ولكنى أقترب فى الوقت نفسه من جنون طريف والعقبى لك .

ـ لا تنس أن تكتب له الدواء .

ـ فعلت يا عزيزتى . .

ما ألطفك يا بثينة! براعم صدرك تشهد للدنيا بحسن الذوق . ولعلى من جيل محافظ نوعا فماذا أعدت أمك؟ . . من المحزن أنك لم تعرفى من الدنيا شيئا ، وأننى صنتك كالكنار فلم تتجاوزى سيارة المدرسة . وهذه النظرة الحالمة ماذا وراءها؟ ألم تضنى علىّ بحلم رغم الصراحة التى تبارك أحاديثنا؟ وكيف تؤثر فيك رائحة الأبدان العارية؟ والغزل المتطاير بين الأمواج ، يا إلهى ادفع المجتمع إلى مجاراة أفكارها وفعالها حتى لا تتعرض لسوء! وقال لها وهى تمد ساقيها العاريتين تحت مقعده المغروس فى الرمل :

ـ لم نهنأ ببعضنا هكذا من قبل!

ـ الحق عليك . .

ـ لم أبق فى المكتب طيلة العمر إلا من أجلكم .

فانطرحت على كوعيها معرضة بطنها وصدرها للشمس المتألقة فى سماء صافية على حين تهادت فوق منحنى الخليج سحابة بيضاء وحيدة . وقالت الأم دون أن ترفع رأسها عن الكانفاه :

ـ قولى له إن صحته اليوم أهم من أى شىء . .

ـ حتى من تأميم العمارات؟

فأجابت متحدية مقطبة :

ـ حتى من تأميم العمارات . .

فقال بنبرة تقريرية مستسلمة :

ـ ما أجمل أن نتكيف مع مجتمعنا!

ولم تنبس بكلمة. ومرت أمام المجلس حسناء معجبة بنفسها فخطف منها نظرة أشاعت فى حواسه بهجة ياسمينية.

ـ عندما أعود إلى حالتى الطبيعية سأحاول أن أفهم الحياة فهما جديدا يقرنها بالسعادة الحقيقية..

ـ لنسأل الله أن يحفظنا من كل سوء..

ـ الله يحب أن نسأله الخير للناس جميعا..

واسترق إليها نظرة ماكرة ثم قال ضاحكا:

ـ ولكن كيف يستجيب الله للدعاء فى هذه الحال؟

وأدركت ما يعنيه ولكنها لم تعلق بكلمة واحدة. وتناسى الموضوع كله واستسلم لأفكاره. خف الوزن ودب النشاط ولكن ما أفظع القلق! الذباب والعمل والزوجة، ويوما ستجد بثينة ما يشغلها عنك ومثلها جميلة التى تشيد الأهرام من الرمال. خبرنى بالله ماذا تريد؟ ولماذا يخيم الصمت رغم الضجيج؟ ولم يتنبأ شىء فى صدرك بمخاوف هوائية؟ وفى كل لحظة تشعر بأن صلة تتمزق محدثة صوتا مزعجا، وأن قائما يتزعزع، وأن أسنانك توشك أن تتساقط. وسوف تفقد الوزن فى النهاية وتسبح فى الفضاء. اشدد قبضتك على الأشياء، وانظر إليها طويلا فعما قليل ستختفى ألوانها. ولن يكترث لك أحد. وها هى الأمواج تطيح بأهرام جميلة المشيدة من الرمال. والهواء يطير الصحف التى لا حقيقة ثابتة فيها إلا صفحة الوفيات. ويقول لك الرجل: «هذه هى قضيتى أعهد بها إلى سيد المحامين». يا للسخرية! لم يبق لنا يا حضرات المستشارين إلا أن نعمل معا فى السيرك القومى.

ـ لماذا تسرح يا عزيزى؟

ـ لا شىء..

ـ هل أنت بخير تماما؟

ـ أظن ذلك .

ـ ولكن خبرتى الطويلة بك تقول إنك فى حاجة إلى عناية . .

ـ يجب أن نحترم الخبرة . .

ـ هل أحدثك عن رأى الطباخة؟

ـ وهل للطباخة رأى؟

ـ قالت إن الرجال السعداء الناجحين عرضة للعين . .

ـ وهل تصدقين ذلك؟

ـ كلا طبعًا ولكن الحيرة تحملنا أحيانا على تجربة أى شىء!

ـ إذن فما عليك إلا أن تتفقى مع شيخة زار!

ـ ألا ترى أن السخرية لم تكن من شيمتك؟

فقال باسما :

ـ وقليل من السخرية يفيد ولا يضر!

ـ لن أثقل عليك يا عزيزى .

وهم عائدون تأخرت به قليلا عن البنتين وقالت :

ـ إليك خبرا سارا . .

تطلع إليها فى يأس خفى :

ـ اكتشفت فى بثينة شيئا لم يكن فى الحسبان!

ـ غير ما اكتشفت فى العام الماضى؟

ـ بلى . إنها يا عمر شاعرة!

رفع حاجبيه الكثيفين فى دهش :

ـ نعم . . لاحظت انهماكها فى الكتابة ، وأنها تمزق ما تكتب ثم تعيد كتابته ، و أخيرا اعترفت لى بأنها تكتب شعرا ، فضحكت وقلت لها . .

وترددت فسألها :

ـ ماذا قلت لها؟

ـ قلت لها إنك بدأت كذلك شاعرا . .

فتساءل مقطبا :

ـ ألم تخبريها كيف انتهيت؟

ـ لكن أن تكون بنت فى سنها شاعرة شىء جميل .

ـ فعلا . .

ـ يجب أن تقرأ شعرها وأن تزودها بنصائحك . .

ـ لو لنصائحى قيمة لأجدت معى!

ـ ولكنك سعيد بالخبر؟

ـ جداً . .

٤

ولكن الاضطراب غطى على السعادة الموقتة . وهذا إحساس عاصف كأنه نوع من الذعر . وثمة جيشان يرعى الصدر لم يقربه منذ عشرين عاما . وناداها إلى الشرفة المطلة على البحر فجاءت فى بلوزة مزركشة وبنطلون بنى يضيق تدريجيا حتى يلتصق بالساقين فوق الرسغين . أجلسها قبالته وهو يقول :

ـ رأيت أن أدعوك لتشهدى معى الغروب . .

همت بالاعتذار فيما بدا له ، وكان يعلم أن ذاك وقت خروجها مع أمها وأختها لنزهة الأصيل على الكورنيش ، ولكنه قال :

ـ ستلحقين بهما سريعا، ألا يحب الشعراء الغروب؟

ولاحظ تورد وجنتيها بشغف وهو يبتسم.

ـ لكن.. لكنى لست بشاعرة!

ـ ولكنك تكتبين شعرا.

ـ ومن أدرانى أنه شعر؟

ـ سوف أحكم بعد الاطلاع!

ـ كلا.

نطقت بها فى إشفاق وحياء فقال:

ـ لا سر بيننا وأنا فخور بك.

ـ ما هو إلا كلام ركيك.

ـ سأحب شعرك حتى ركيكه.

أسبلت جفنيها فى استسلام حتى تلاقت رموشها الطويلة المقوسة إلى أعلى، وإذا به يسألها فى اهتمام من الأعماق:

ـ خبرينى يا بثينة كيف اتجهت نحو الشعر؟

ـ لا أدرى!

ـ أنت متفوقة فى العلوم ولكن كيف اتجهت نحو الشعر؟

وهى تتذكر مقطبة:

ـ المختارات المدرسية!.. أحببتها جداً يا بابا..

ـ ولكن ما أكثر من يحبونها!

ـ كانت تسحرنى بدرجة أقوى فيما أعتقد..

ـ ألم تقرئى غير ذلك من الشعر؟

ـ بلى، قرأت فى دواوين..

ـ دواوين؟!

فضحكت قائلة:

ـ استعرتها من مكتبتك!

ـ حقّا؟!

ـ وعرفت أنك شاعر أيضا.

وخزه ألم فدفعه للتظاهر بالمزيد من المرح وقال:

ـ لا.. لا.. لست شاعرا.. كانت لعبة من لعب الطفولة.

ـ مؤكد أنك كنت شاعرا، على أى حال وجدتنى مدفوعة إلى الشعر دفعا..

أنت تتحدث عن المسرح ولكنى شاعر، وأنا ملقى فى دوامة لا نجاة منها إلا الشعر فهو غاية وجودى. وإلا بالله خبرنى ماذا نصنع بالحب الذى يكتنفنا كالهواء؟ والأسرار التى تلفحنا كالنار. والكون الذى يرهقنا بلا رحمة؟ فلا تكن مكابرا يا صديقى.

ـ زيدينى شرحا؟

قالت وهى تسترد شجاعتها المألوفة:

ـ كأننى أبحث عن أنغام فى الهواء!

ـ قول جميل يا بثينة، وهو كذلك ما دام لا يفسد علينا الحياة..

ـ ماذا تقصد يا بابا؟

ـ أعنى دراستك، ومستقبلك، ولكن آن لى أن أطلع على شعرك!

أتته بكراسة مغلفة بورق مفضض. وباحترام وحب وإشفاق ولهفة راح يقرأ. وتخلل قراءته عام ١٩٣٥ مداعبا ومعترضًا. عهد الحرمان والأمل والأسرار. والاضطراب المطوق للعباد. وأحلام المدينة الفاضلة. ثم صوت عثمان وهو يرتعش هاتفا «عثرت على الحل السحرى لجميع المشاكل».

ولكن البنت عاشقة. وربى إنها لعاشقة. البرعمة التى لم تتفتح بعد. من هو ذو الجمال. الذى السحاب أنفاسه. والشمس مرآته. الذى تتمايل الأغصان شوقا إليه. لماذا نضطرب إذا كرر الأبناء سيرتنا؟ وما رأى أبى إذا سمعنى أحدث حفيدته فى الحب؟!

ـ هذا شعر حقًا!

تألق الفرح أخضر فى عينيها وصاحت:

ـ حقًا؟!

ـ شعر جميل.

ـ أنت تشجعنى يا بابا ليس إلا..

ـ بل أقول الحق.

ونظر فى عينيها ثم سأل باسما:

ـ ولكن من هو؟

فانطفأت شعلة الحماس فى عينيها وتساءلت فى شىء من الخيبة:

ـ من..؟

ـ من المقصود بالترانيم؟

ثم بنبرة ثقة:

ـ لم يعرف السر مكانا بيننا..

فقالت بإلغاز لم يخل من فتور:

ـ ليس أحدا من الناس!

ـ ترى ألم أعد الصديق الأب؟

ـ بلى ولكنه ليس أحدا من الناس.

ـ يهمنى أن أعرفه بعد إذنك؟

ـ ولكنى أقول إنه ليس أحدا من الناس.

ـ أهو من الملائكة؟

ـ ولا من الملائكة.

ـ ماذا هو إذن.. حلم.. رمز؟

فى حيرة واضحة:

ـ لعله.. هو غاية كل شىء..

مسح الرطوبة عن جبينه وساعديه وصمم بإرادة هائلة على أن ينتزع من نفسه أية نية عبث أو سخرية أو استهانة وقال بجدية:

ـ إذن فأنت تعشقين سر هذا الوجود؟

أجابت فى توتر حل محل شجاعتها التلقائية:

ـ هذا جائز جدا يا بابا..

وما أحمقنا عندما نظن أنفسنا أغرب من الآخرين.

ـ كيف حصل ذلك؟

ـ لا أدرى..، من الصعب أن أوضح، ولكنى وجدت فى ديوانك بدء الطريق..

وضحك ضحكة عضلية خالصة وقال:

ـ مؤامرة عائلية!.. أمك كانت تعرف من زمن وأطلعتك على ذلك الشىء الذى تسمينه ديوانا..

ولكنه شعر رائع.. وكم أنه ملهم!

وضحك ضحكة عالية لفتت إليه عازف البيانولا الذى كان يرسل على الكورنيش أنغامه المتشنجة.

ـ أخيرا وجدت معجبة! ولكنه لم يكن شعرا، كان أوهاما محرقة، ومن حسن الحظ أنى تركته فى الوقت المناسب..

ـ أما أنا فوجدت فيه ما أهيم به..

ـ إذن فأنت خالقة حتى فى قراءتك!

ـ أنت تقول هذا!

ـ وهذا هو حبيبك؟

ـ كما أنه حبيبك!

كان. لا حبيب الآن. القلب لم يعد يفرز إلا الضياع. وبين النجوم يترامى الفراغ والظلام. وملايين السنين الضوئية.

ـ ما رأيك يا أبى؟

ـ لمثلك ينبغى أن أقول: «افعلى ما تشائين».

فتساءلت فى مرح:

ـ ومتى تعود إلى الشعر؟

ـ ادعى الله أن أعود إلى مكتبى أولا!

ـ إنى أعجب كيف هان عليك أن تهجره؟

فقال وهو يدارى ابتسامة حياء:

ـ كان لهوا ليس إلا..

ـ والديوان يا بابا؟

ـ توهمت يوما أننى سأستمر..

ـ ولكنى أسألك عما أوقفك.

تداخلت شفتاه فى سخرية ولكن سرعان ما ارتفع إلى حال من الجدية الصادقة ودفعته رغبة صريحة إلى الاعتراف فقال:

ـ لم يسمع لغنائى أحد.

أضر بك الصمت.. وقال مصطفى محرضا:

ـ المثابرة والصبر!

وقال عثمان:

ـ أقذف بشعرك فى المعركة تظفر بالآف المستمعين!

وأرهقك الصمت. ألح عليك الحرمان. وفتح الحب ذراعيه وأثبت أنه لا قدرة له على الامتلاك. ويوما قال مصطفى بارتياح:

ـ أخيرا قبلت فرقة الطليعة مسرحيتى.

واشتد إرهاق الصمت. وقرر شمشون أن يهدم المعبد. وسرعان ما استغرقه النوم.

وسألت بثينة:

ـ هل من الضرورى يا بابا أن يستمع لغنائنا أحد؟

فداعب خصلة من شعرها الأسود وقال:

ـ ما معنى أن ندعو سر الوجود من الصمت إلى الصمت؟

ثم برقة وعطف:

ـ ألا تودين أن يسمع لغنائك الناس؟

ـ طبعا ولكنى سأستمر على أى حال..

ـ جميل، أنت أفضل من أبيك، هذا كل ما هنالك.

ـ ولكنك تستطيع أن تعود إلى الشعر إذا أردت..

ـ الموهبة ماتت إلى الأبد.

ـ لا أصدق، إنك فى نظرى دائما شاعر.

ما للشعر وهذا الطول والعرض، والتفكير الدائب فى القضايا، وبناء العمارات، والطعام الدسم لحد المرض؟!

وحتى مصطفى انحط يوما على المقعد الطويل مقوس الظهر كأنما أوغل فى الكبر وقال:

ـ ما أضيع الجهد!

وقلت له بانزعاج:

ـ ولكن الطليعة ترحب بمسرحياتك، وهى فن جيد حقا.

فلوح بيده بازدراء وقال:

ـ على أن أعيد النظر فى حياتى كما فعلت أنت..

ـ طالما نصحت بالمثابرة والصبر.

فبصق ضحكة خشنة وقال:

ـ لا فائدة من تجاهل الجماهير!

ـ أتريد أن تبدأ من جديد محاميا؟

ـ مات القانون قبل الفن، الحق أن مفهوم الفن قد تغير ونحن لا ندرى، عهد الفن قد مضى وانقضى، وفن عصرنا هو التسلية والتهريج، هذا هو الفن الممكن فى زمن العلم، ويجب أن نتخلى عن جميع الميادين عدا السيرك.

ـ الحقيقة أننا نتحطم واحدا بعد آخر.

ـ بل قل إننا بلغنا سن الرشد، انظر إلى نجاحك فى الحياة على سبيل المثال، وفى رأيى أن الترفيه غاية جليلة لمتعبى القرن العشرين، وما نظن أنه الفن الحقيقى ليس إلا الضوء القادم من نجم مات منذ ملايين السنين، فعلينا أن نبلغ سن الرشد وأن نولى المهرجين ما يستحقون من احترام!

ـ يخيل إلىّ أن التفلسف قد قضى على الفن!

ـ بل قضى العلم على الفلسفة والفن، فإلى مسرات التسلية بلا تحفظ، ببراءة الأطفال وذكاء الرجال، إلى القصص الخفيفة والضحكات المجلجلة والصور الغريبة، ولنتنازل نهائيا عن غرور الكبرياء وعرش العلماء ولنقنع بالاسم المحبوب والمال الوفير..

سرنى ذلك رغم الحزن والأسف. مارست بتألم حقيقى العواطف المتضاربة. وفكرت بذهول فيمن ازدرده السجن. الأصلع المحبوب

يهبك بلسم العزاء لفشلك. وتفوقا غير متوقع. من غد سوف يطمح إلى القوة التى امتلكها ولكن بوسيلة أتفه. كما انقلب المتطلع إلى سر الوجود إلى محام ثرى غارق فى المواد الدهنية.

ـ إن يكن العلم كما تتصور فما نحن إلا طفيليون على هامش الحياة.

ـ نحن رجال ناجحون ذوو سر دفين من الحزن المكبوت وليس من الحكمة أن ننكأ الجروح.

ـ لكننا ننتمى فى الواقع إلى عصر قديم بال.

ـ بالله لا تنكأ الجروح.

ـ العلماء أقوياء بالحقيقة ونحن قوتنا مستمدة من المال الذى يفقد شرعيته يوما بعد يوم.

ـ لذلك أقول لك إن الموت يمثل أملا حقيقيا فى حياة الإنسان. ونظر إلى عينيها الخضراوين برقة وقال:

ـ بثينة، هل أطمع بأن تعدينى بألا تفرطى فى دراستك العلمية؟

ـ أظن ذلك ولو أن الشعر سيظل أجمل ما فى حياتى..

ـ ليكن لن أجادلك فى ذلك، ويمكن أن تكونى شاعرة وفى ذات الوقت مهندسة مثلا.

ـ يبدو أنك مشغول بمستقبلى..

ـ طبعا، لا أحب أن تنتبهى يوما فتجدى نفسك فى العصر الحجرى على حين يعيش من حولك فى عصر العلم.

ـ لكن الشعر...

فقاطعها:

ـ لن أجادلك يا عزيزتى، صديقى مصطفى يجد فى العلم دينا وشعرا وفلسفة، لكنى لن أجادلك، أنا سعيد بك وفخور..

ها هى الشمس تتهاوى للمغيب. قرص أحمر كبير امتص المجهول قوتـه وحيويتـه الباطشة فرنت إليه الأعين كما ترنو إلى الماء. وتدفقت حولـه كثبان السحب وضاءة الحوافى موردة الأديم فى مهرجان الألوان.

أتريد أن تعرف سرى حقًا يا مصطفى، اسمع عندما أمضنى الفشل جريت نحو القوة التى آمنا من قبل بأنها شر يجب أن يزول، ولكنك تعرف سرى يا مصطفى.

٥

فى ضوء الشمس الغاربة تبدت أنيقة وقورا، رغم اكتناز جسمها الطويل، المفصح عن شبع مثير ورفاهية محنقة، ما كان أرق جمالها! وما زالت على قدر من الجمال بالرغم من ضخامتها غير العادية وانتفاخ وجنتيها. ونظرتها الخضراء الجادة لم تفقد كل سحرها ولكنها غريبة، غرابة مستحدثة لم ترها عينك من قبل. امرأة رجل آخر. رجل الأمس الذى لم يعرف التعب أو الفتور. الذى نسى نفسه. ولكن ما علاقتها بهذا الرجل؟ المريض بلا مرض، المتجنب للدسم والشراب، الذى يتنسم فى الهواء المشبع بالرطوبة نذر مخاوف لا حدود لها. والأختان سابقتان، جميلة تمشى على سور الكورنيش الحجرى قابضة على يد بثينة التى سايرتها على الأرض، فى الطريق ما بين جليم وسيدى بشر الذى يخف به الزحام درجة ما. وأعين كثيرة تطلعت إلى بثينة، وشفاه تمتمت بكلمات لم يميزها ولكنه يعرفها على أى حال فابتسم من الداخل فحسب. وما هو إلا عامان أو ثلاثة ثم تصيرا جدا، وتمضى الحياة،

ولكن إلى أين؟ والتفت إلى الشمس الغاربة فى سماء صافية باهتة لم يعلق بها من الشفق إلا قشرة سطحية استدارت عند الأفق. قال:

ـ كان الأقدمون يتساءلون أين تذهب الشمس، ولم نعد نتساءل. .

فتطلعت زينب إلى الشمس ثوانى ثم قالت:

ـ بديع أن نتخلص من سؤال!

الإجابة العاقلة تخنقك وكأنها تستفزك. التصرفات العاقلة تغضبك بلا سبب. . ما أجمل أن يثور البحر حتى يطارد المتسكعين على الشاطئ! وأن يرتكب السائرون على الكورنيش حماقات لا يمكن تخيلها. وأن يطير الكازينو الكبير فوق السحب وأن تتحطم الصور المألوفة إلى الأبد. فيخفق القلب فى الدماغ، وتتراقص الزواحف والعصافير.

ومضت البنتان إلى سينما سان استفانو، ثم واصل كلاهما المشى متقاربين. . وإذا بها تتأبط ذراعه وتهمس متسائلة:

ـ عمر. . ماذا عندك؟

ألقى نظرة باسمة على ما حوله وقال:

ـ ما أكثر الغرام!

ـ هو كذلك دائما، ولكن ماذا عندك؟

فقال ممعنا فى التجاهل:

ـ بثينة لا تعرف أشياء كثيرة، فكرت فى ذلك وأنا. . .

فقاطعته نافدة الصبر:

ـ إنى أعرف ما على، والبنت معدنها نفيس، ولكنك تهرب. .

ما أشد استجابة نفسك لـ «تهرب» كأنها مفتاح سحرى يلقى إليك فى جب!

ـ أهرب؟
ـ أنت فاهم ما أعنيه فاعترف . .
ـ بأى جريمة؟
ـ بأنك لم تعد أنت . .
ما أحوج الرطوبة اللزجة إلى عاصفة هوجاء!
ـ حقّا؟
ـ جسمك وحده الذى يعيش بيننا ، وأحيانا أحزن لحد الموت .
ـ ولكننى أتداوى بعزيمة صادقة كما لابد تشهدين .
ـ الحق أنى أتساءل عن السبب وراء ذلك كله ، أطوارك جعلتنى أتساءل من جديد .
ـ لكننا شخصنا الحال بما فيه الكفاية .
ـ أجل ، ولكن ألا يضايقك شىء بالذات؟
ـ أبدا . .
ـ يجب أن أصدقك .
ـ لكنك لا تصدقين تماما فيما يبدو؟
ـ ظننت أن أمرا ضايقك ، فى المكتب ، فى المحكمة ، عند أحد من الناس ، وأنت حساس وبارع فى الحزن المكتوم!
ـ أنا لم أقصد الطبيب إلا لأننى لم أعثر على سبب محسوس .
ـ لم تحدثنى كيف بدأت الحال .
ـ طالما حدثتك عن ذلك .
ـ عن النتائج فقط ولكن كيف بدأ الحال على وجه التدقيق؟
وها هى رغبة مستهترة فى الاعتراف تدفعك .
ـ من الصعب أن أحدد تاريخا أو أقرر كيف بدأ التغير . لكننى أذكر

أننى كنت مجتمعا بأحد المتنازعين على أرض سليمان باشا، وقال الرجل: «أنا ممتن يا إكسلانس، أنت محيط بتفاصيل الموضوع بدرجة مذهلة حقيقة باسمك الكبير، وأن أملى فى كسب القضية لعظيم». فقلت له: «وأنا كذلك» فضحك بسرور بين وإذا بى أشعر بغيظ لا تفسير له، وقلت له: «تصور أن تكسب القضية اليوم وتمتلك الأرض ثم تستولى عليها الحكومة غدا» فهز رأسه فى استهانة وقال: «المهم أن نكسب القضية، ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها» فسلمت بوجاهة منطقه ولكن ذهل رأسى بدوار مفاجئ واختفى كل شىء..

رمته بنظرة داهشة وسألته:

ـ أكان هذا هو السبب؟

ـ أبدا.. لا أعرف سببا على التحديد، ولكنى كنت أعانى تغيرا خفيا مستمرا، من هنا جاء تأثرى الذى لا معنى له بكلام الرجل الذى تردده الملايين كل ساعة دون أن يحدث أى أثر لأى إنسان.

ـ طبعا، أنت لا تفكر فى الموت إلا كما يفكر العقلاء.

ترى كيف يفكر العقلاء فى الموت؟

ـ هذا مسلم به من حسن الحظ.

وهى تحدجه مستطلعة:

ـ وهل كرهت العمل بعد ذلك؟

ـ لا.. لا أستطيع أن أقطع برأى فى ذلك، ربما قبله وربما بعده.

ـ الحق أنى حزينة بدرجة لا أحب أن أحدثك عنها..

ـ ولكن هل يهمك العمل لهذا الحد؟

ـ أنت من يهمنى، أنت وحدك..

وتؤجل قضية فأخرى فثالثة يمضى النهار وأنت مستمر فى مقعدك

ممدود الساقين تحت المكتب تدخن بلا انقطاع وتنظر إلى السقف ببلاهة.

- تعبت من المشى.

- لكنك تمشين أضعاف ذلك.

فقالت وهى تخفض البصر:

- آن لى أن أعترف لك بدورى، الراجح أننى حبلى..

فاهتز باطنه بموجة قاسية أكدت تلهفه على مفتاح الهرب السحرى وتمتم:

- لكن..

فقالت بهدوء:

- يا عزيزى، أمر الله فوق كل تدبير..

ثم وهى تشد على ذراعه:

- وأنت لم تنعم بعد بولى العهد!

واستدارا راجعين ونظرة دلال تمرح فى عينيها، ومرت النظرة طويلا حتى دق ناقوس الإنذار. وقال لنفسه إنه بشىء من الشراب سيطرد الفتور ويمثل دور الحب كما يمثل الزوجية والصحة.

واستيقظ مبكرا بعد نوم ساعات معدودات. وطرق أذنيه صخب الأمواج العاصف فى سكون الصباح المعتم، وزينب مستغرقة فى النوم، مكتظة بالنوم والشبع تنفرج شفتاها عن شخير خفيف متواصل، مشعثة الشعر. وأنت متضايق كأنما كتب عليك أن تناطح نفسك. وهذا يعنى أننى لم أعد أحبك. بعد الحب القديم والعشرة الطويلة والذكريات المليئة بالوفاء لم أعد أحبك. لم تبق ذرة حب واحدة. ليكن عرضا يزول بزوال المرض ولكنى الآن لا أحبك. وهو أشقى ما ألاقى من مر التجارب. وها أنت تسمع شخيرها فلا تعطف ولا يبتسم القلب. وتنظر

إليها وتسأل ماذا جاء بها أو ماذا جاء بك ومن ذا قضى بهذه السخرية اللعينة؟!

- مصطفى ها هى الفتاة!

- الخارجة من الكنيسة؟

- ها هى . . انظر إلى فستانها الأسود حدادا على عمها . . أى ملاحة!

- ولكن الدين!

- لم أعد أكترث لهذه العوائق . .

وقلت له يسعدنى أنك تنازلت بقبول معرفتى . فى حديقة العائلات قدم عمر الحمزاوى المحامى نفسه فتمتمت بصوت لا يكاد يسمع «كاميليا فؤاد» . يا عزيزتى حبنا أقوى من كل شىء وسوف نتغلب على أى عائق فقالت وهى تتنهد «لا أدرى» .

ويوما ضحك مصطفى فى جو عاصف وقال :

- إنى أعرفك منذ عهد آدم، بحاثة عن المتاعب، زوبعة فى بيتك وزوبعة أعنف فى بيتها وأنا حائر بينكما . .

ثم ما أجمل موقفه وهو يرفع كأسه صائحا :

- مبارك عليكما، أصبح الماضى فى خبر كان، ولكن تضحيتك لا تقاس بتضحيتها، وللعقائد طغيان حتى على الذين نبذوها، صحتك يا زينب، صحتك يا عمر . .

وانتحى بك جانبا وراح يقول وهو سكران تماما :

- لا تنس الأيام الأليمة، لا تنس الحب أبدا، تذكر أنه لم يعد لها أهل فى هذه الدنيا، مقطوعة من شجرة، ولا أحد لها سواك .

تزوجت قلبا نابضا لا حدود لحيويته، وشخصية فاتنة حقا، تلميذة مثالية للراهبات، مهذبة بكل معنى الكلمة، مدبرة حكيمة كأنما خلقت

للتدبير والحكمة، وقوة دافعة للعمل لا تعرف التوانى، ونظرة ثاقبة فى استثمار المال، ارتفعت فى عهدها من غمار العدم إلى التفوق الفريد والثروة الطائلة، وجدت فى حرارة حبها عزاء عن الفشل والشعر والجهاد الضائع، رمز الجنس والمال والشبع والنجاح، فماذا جرى؟!

وتقلبت فى الفراش على وجهها فانحسر طرف القميص عن نصفها التحتانى العارى، فانزلق من الفراش متجها نحو الشرفة.

ودخل ثم أغلق الباب وراءه. طوقه هواء عاصف ورأى الأمواج وهى تركض بجنون نحو الشاطئ فتلطم بزبدها الفاتر أرجل الكباين، تحت قبة باهتة انتشرت قطعان السحب فى جنباتها وغام جو الصباح الباكر باللون الرمادى المشع منها. ولم تدب قدم بعد فوق الأرض. ولم تنفتح نفسك لشىء. ولم ينعشك الهواء. وحتى متى تنتظر الشفاء. أين مصطفى لأسأله عن معنى هذه المتناقضات. عنده من الأفكار مدخر كثير رغم أنه لم يعد يبيع اليوم إلا اللب والفشار. لماذا يجىء دور زينب بعد العمل؟! وها هى موجة تعلو علوا غير عادى، ثم تتكسر عن أطنان من الزبد، ثم تنداح فى تدهور مسلمة الروح. يا إلهى إنهما شىء واحد. زينب والعمل. والداء الذى زهدنى فى العمل هو الذى يزهدنى فى زينب. هى القوة الكامنة وراء العمل. هى رمزه. هى المال والنجاح والثراء وأخيرا المرض. ولأنى أتقزز من كل أولئك فأنا أتقزز من نفسى أو لأنى أتقزز من نفسى فأنا أتقزز من كل أولئك. ولكن من لزينب غيرى؟ الليلة الماضية كان الحب تجربة مريرة. ضمر ونضب فلم يبق منه سوى ارتفاع فى الحرارة وسرعة فى النبض وزيادة فى ضغط الدم وتقلص فى المعدة، تتلاحق فى وحدة رهيبة. وحدة الموجة التى يمتصها رمل الشاطئ. فلا يتقهقر منها إلى البحر شىء. هى تترنم بأهازيج الغرام وأنا أبكم، هى تطارد وأنا شارد اللب، هى تحب وأنا كاره، هى حبلى وأنا عقيم، هى حساسة حذرة وأنا بليد، وقالت أنت لا تتكلم كعادتك

فقلت بل لا يسمع لى صوت، وقلت تصور أن تكسب القضية اليوم فتمتلك الأرض ثم تستولى عليها الحكومة غدا، فقال: ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها. ورغم الجفاء والجفاف فإن الموجة تعلو لحد الجنون ثم تتكسر عن الزبد ثم تسلم الروح، ويزدردك قبر النوم بلا راحة، ويظل عقلك يتابع هواجسه، حتى الطبيب تفكر فى زيارته مرة أخرى، مسلما بأنك تغيرت أكثر مما كنت تتصور، فيا ترى ماذا أريد، أجل ماذا أريد، الفقه لا يهم، والحكم لصالح موكلى لا يهم، وإضافة مئات جديدة لحسابى لا يهم، ونعمة البيت السعيد لا تهم، وقراءة عناوين الصحف لا يهم، فما رأيك فى رحلة فى الفضاء، فى ركوب الضوء شكرا لسرعته الثابتة، الشىء الوحيد الثابت فى هذا الكون الذى لا يعرف الثبات، المتغير بلا توقف، المتحرك فى جنون.

وها هو قد وصل أول مكتشفين للفضاء، بياع الجراثيم وبياع الأنباء الكاذبة . .

٦

فى آخر أغسطس رجعت الأسرة إلى القاهرة. وامتعض عمر لمرأى ميدان الأزهار وهو فى سبيله إلى عمله وقال إنه لم يتغير عما تركه وإنه ما زال معبرا كالحا للذاهبين إلى أعمالهم. واستقبل استقبالا حارا وبخاصة من مساعده الأستاذ محمود فهمى، وسرعان ما حملت إليه ملفات القضايا المؤجلة والتى تحت البحث. ولم يخل سبتمبر من أيام لزجة ولكن جرت به نسائم لطيفة وظللت بواكير صباحه طلائع سحب بيضاء. وعانقه مصطفى المنياوى طويلا وتبادلا القبلات، ووقفا طوال الاستقبال وجها لوجه، عمر بقامته المديدة ومصطفى رافع وجهه نحوه

وصلعته مائلة إلى الوراء تلمع تحت ضوء المصباح الفضى. وقال وهو يجلس على المقعد الجلدى الكبير أمام المكتب:

ـ أراك فى رشاقة الغزال، برافو..

وتناول سيجارة من العلبة الخشبية المطعمة بالصدف التى تعزف أنغامها عند فتحها، ثم أشعلها وهو يقول:

ـ فكرت مرات أن أزورك فى الإسكندرية ولكن واجب الزوجية كان ينادينى إلى رأس البر فضلا عن أننى شغلت طيلة الوقت بإعداد مسلسلة جديدة للراديو..

ونظر إلى ملفات القضايا، ثم إلى عينى صاحبه مستجديا كلمة مشجعة فابتسم عمر ابتسامة غامضة فألحق النظرة بالاستجداء حتى قال عمر:

ـ عملت صباح اليوم ساعات متواصلة.

فتنهد مصطفى فى ارتياح غير أن الآخر تمتم:

ـ ولكن..

فتساءل مصطفى فى قلق:

ـ ولكن!

ـ بالصراحة لم أسترد للعمل أى رغبة..

وساد صمت متشائم، ونفث الدخان من فم متوتر، ثم تساءل:

ـ أكان ينبغى أن تأخذ مزيدا من الراحة؟

ـ دعنا من المغالطة فالأمر أخطر من ذلك.

ثم وهو يشعل بدوره سيجارة على صدى أنغام جديدة:

ـ الأمر أخطر من ذلك، وليس العمل وحده الذى أصبحت أكره

ولكن الداء يلتهم أشياء أخرى أعز علينا من العمل، زوجتى على سبيل المثال.

ـ زينب!

فقال فيما يشبه الحياء:

ـ لا أدرى كيف أتكلم ولكن للأسف لم أعد أطيقها، البيت نفسه لم يعد بالمأوى المحبوب!

ـ أتقول ذلك عن مكان يضم بثينة وجميلة؟

ـ من حسن الحظ أنهما ليستا فى حاجة إلى . .

تجهم وجه مصطفى ورمشت عيناه المستديرتان الذابلتان وتجلت فى نظرته المستطلعة رغبة ملحة حزينة فى حل اللغز.

ـ لكن مثلك لن يعجزه معرفة السر.

قال وهو يبتسم ابتسامة مريرة:

ـ لعله الكون ـ بدورانه الدائم على وتيرة واحدة ـ هو المسئول الأول عن ذلك.

ـ أعترف بأنك تبالغ فيما يتعلق بزينب على الأقل.

ـ هى الحقيقة السوداء.

فسأله بإشفاق:

ـ تتوقع عواقب عملية لذلك الموقف؟

ـ إنى أعيش فى مقام السؤال ولكن بلا جواب.

ـ على الأقل فإنك لابد مقتنع بأن ما بك هو حال من أحوال النفس.

ـ سمه كيف شئت، ولكن ما هو، ماذا أريد، ماذا علىّ أن أعمل؟!

ـ أنت أرشد من أن تبقى فى مقام السؤال، سائل رغباتك الدفينة، راجع أحلامك، ها هى أشياء تود الفرار منها، ولكن إلى أين؟

ـ أجل، إلى أين؟

ـ عليك أن تجيب بلا تردد.

ـ خبرنى أنت عما يدفعك إلى العمل والزوجة؟

بدا السؤال مضحكا على نحو ما فضحك ولكن قتامة الجو لم تسمح للمرح بالبقاء أكثر من ثوان.

ـ إنى أرتبط بزوجتى بحكم الواقع والعادة، أما عملى فهو مصدر رزقى، ولى جمهور أسعد به كثيرا، مئات الرسائل التى أتلقاها أسبوعيا تسعدنى حقا، والحق أن تجاوب الناس معك قيمة ثمينة ولو كان مصدره بيع اللب والفشار!

ـ وأنا ليس لى جمهور وواقع وعادة؟!

تردد مصطفى مليا ثم قال:

ـ الحقيقة أن عملك جاوز بك أبعد غايات النجاح. وأن زوجك تعبدك، فلم تعد أمامك غاية تتطلع إليها.

عمر وهو يبتسم ساخرا:

ـ هل أسأل الله فشلا فى العمل وخيانة فى الزوجية؟

ـ لو استجاب لك لمنحك حب الحياة من جديد!

وخلا كلاهما إلى نفسه فى صمت مشحون بالتوتر منذر بمأساة وشيكة الوقوع. وقال عمر:

ـ يعزينى أحيانا أننى أكره نفسى بنفس القوة.

ثم وهو يطفىء عقب السيجارة فى النافضة بقوة حانقة:

ـ والحق أن عملى وزينب ونفسى، كل أولئك شىء واحد هو ما أود التخلص منه..

فسأله وهو يحدجه بنظرة مريبة:

ـ هل هناك حلم يراودك؟

تردد بعض الوقت ثم قال بنبرة اعترافية :

ـ حدث أن كتبت بثينة شعرا . .

ـ بثينة؟!

ـ قرأته ودار بيننا حديث فانبعثت فى نفسى أشواق غامضة إلى الكتب القديمة التى هجرتها منذ عشرين سنة!

ـ أوه . . كم خطر ذلك ببالى!

ـ صبرك! . . حقّا لقد دبت الحركة فى الركود الأبدى، ورحت أبحث عن نغمة ضائعة، وتساءلت ترى هل يمكن أن أبدأ من جديد؟ . . ولكنها كانت مجرد حركة طارئة ثم ما لبثت أن تجمدت . .

ـ لكنك تراجعت بسرعة!

ـ بل عاودت القراءة، وسطرت كلمات، ولكن ذلك كله لم يكن شيئا، وذات ليلة وأنا فى السينما رأيت وجها جميلا فدبت الحركة فى مرة أخرى . .

ـ أهى الحركة ما تنشد؟

ـ حركة أو نشوة . . أحيت الكائن دفعة واحدة . . وآمنت ساعتها بأن الحركة أو النشوة هى مطلبى، لا العمل ولا الأسرة ولا الثراء . . هى هذه النشوة العجيبة الغامضة . . كأنها النصر الدائم وسط الهزائم المتلاحقة . . وهى التى سحقت الشك والخمول والمرارة . .

وجه مصطفى إليه نظرة ثابتة وهو قابض على ذقنه بيده وتساءل :

ـ ترى أترغب فى أن تودع الحب الوداع الأخير؟

فقال مقطبا :

ـ أتظنه عرضا من أعراض السن الحرجة؟! ولكن ذلك يعالج ببساطة

ويمر بسلام عندما يندفع زوج وقور على غير توقع إلى الملاهى الليلية أو يتزوج من امرأة جديدة، وقد ترانى يوما راكضا وراء امرأة ولكن سيظل ما يدفعنى شيئا أخطر من أعراض السن الحرجة . .

ولم يتمالك مصطفى من أن يضحك ضحكة عالية ثم يسأل :

ـ ترى أهى نشوة عجيبة حقا أم أنها تبرير فلسفى لجريمة الزنا؟!

ـ لا تتهكم بى فأنت نفسك كنت يوما فريسة لأزمة خطيرة . .

ابتسمت أسارير وجهه ولاحت فى عينيه نظرة مناداحة فى متاهات التذكر وقال :

ـ أجل كنت شارعا فى كتابة مسرحية جديدة وإذا بالفن يتفتت بين يدى نشارة وترابا ولكنى سرعان ما استبدلت به فنًا آخر دان له ملايين المواطنين بالسعادة .

ـ أما أنا فأخطأت الطريق، استبدلت بالفن الزائل عملا ينافسه فى البلى، فالمحاماة كالفن من أعمال العصور البائدة، وأنا لا أحسن ما أحسنت من فن جديد، وفاتنى مثلك أن أتعلم العلم، فكيف السبيل إلى نشوة الخلق المفقودة؟! . . الحياة قصيرة وأنا لا أنسى الدوار الذى أصابنى عندما قال لى الرجل : «ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها؟» .

ـ هل تزعجك فكرة الموت؟

ـ كلا ولكنها تحتم على أن أذوق كنه الحياة . .

ـ كما وجدتها فى السينما؟!

لم يعلم بجولاتك فى ميادين الإسكندرية وطرقاتها . وتشوفك الظامئ إلى الوجوه الواعدة بالنشوة المستعصية، وتسكعك تحت أشجار الشلالات المترنحة باستغاثات العواطف المشبوبة . العملاق المجنون الذى ينقب عن عقله الضائع تحت الأعشاب الندية .

وألمح إلى تلك المغامرات بشىء من الإسهاب ولكن فى إطار من حديث وقور يناسب العجائب الغامضة.

لم أكن فى تلك الليالى العجيبة حيوانا تحركه شهوة، ولكننى كنت معذبا.. ويائسا..

٧

كلما رأيتك كثيرا ازددت شهوة
وكلما ازدادت شهوتى زاد لهيبى

ـ يا لها من أغنية متفجرة!.. من المغنية؟

ـ مارجريت.. نجمة «باريس الجديدة»..

ونسمت نسمة خريفية فى الحديقة الهلالية التصميم التى تنبثق وسطها حلبة الرقص، وترامت الأنغام من فوق مسرح أحمر الجدران والسقف يشع النور المكتوم من باطن جوانبه الملتهبة.

ـ إنجليزية التكوين!

ـ هذا ما يدعيه صاحب الملهى ولكن حذار فمفهوم إنجليزية فى الملاهى الليلية يمكن أن تدخله أجناس شتى..

ثمة خطوط رشيقة فى صفحة الوجه ونظرة فى العينين الملونتين وخفة فى الحركة، لعل من تضامنها جميعا تنبثق النشوة المستعصية المنشودة.

ـ يا بختك فأنت خبير بهذه الجنات المحرمة..

ـ هى ضمن عملى بصفتى المشرف على القسم الفنى بالمجلة!

ـ برافو! . . قلت إن اسمها مارجريت؟

فأجاب وهو يضحك :

ـ أو عشرون جنيها فى الليلة بخلاف مصاريف الفتح!

وحملت إليه نسمة الخريف اللطيفة تحية من عالم مجهول لا يسكنه عقل واحد وتقوم أركانه الأربعة وراء الظلام المحدق بأشجار السرو .

ـ توقع من جانبى أى عجيبة .

ـ ولكن لا تشرب أكثر من كأس .

ـ المهم أن أدعوها إلى المائدة . .

ومضى مصطفى يبحث عن النادل . وسطعت الجو نفحة زنبقة . وفى فترات الصمت بين الغناء تجلت وشوشة الأغصان . وتوثب لطرق باب الهوس . . ورأى أنماطا غريبة من البشر فقال لنفسه كالمعتذر : هذا ما فعل بنا المرض!

وجاءت مارجريت تخطر فى ثوب سهرة مختلط الألوان لدرجة الغموض وحيت باسمة عن أسنان نضيدة بارزة، وعلى بعد متر وقف النادل شبه منحن كظلها فأمن عمر قائلا :

ـ شمبانيا . .

شربتها أول ليلة زفافك . من أرخص الأنواع كانت هدية مشتركة من مصطفى وعثمان معا . ما عسى أن يفعل المسجونون لو تفشى بينهم مرضك الغريب؟!

ورحب مصطفى بالمرأة ترحيب رجل لا يجهلها ولا تجهله وقال لها :

ـ مس مارجريت، أعجب كلانا بصوتك . وصديقى معجب بشخصك، والظاهر أنه كلما رآك ازداد . .

وغمز بعينه ضاحكا ثم قال:

ـ صديقى محام كبير، أرجو ألا تحتاجى إليه بصفته المهنية!

فضحك ثغرها ضحكة خالية من الصوت وقالت:

ـ إنى أحتاج دائما لمن يدافع عنى، أليس ذلك تعريفا لا بأس به للمرأة؟

فقال عمر مستعينا بلباقة خاصة لم تستعمل من سنين طويلة:

ـ باستثناء من لهن جمالك أو صوتك..

وقال مصطفى وعيناه الذابلتان ترمشان فى خبث:

ـ دعينى أعرفك أنه بدأ شاعرا وإن لم يصل إلى مستوى «ازدادت شهوتى»..

تساءلت مارجريت فى حذر وهى تتفحص عمر:

ـ شاعرا؟!.. لكنه يبدو رصينا بكل معنى الكلمة؟

فقال عمر:

ـ لذلك سرعان ما هجرت الشعر..

ـ وهو يبحث عن الجمال علاجا لداء طريف ألم به فى الأيام الأخيرة..

وانطلقت طقة السدادة وهام فى الكئوس الحباب.

ـ أيعنى هذا أننى نوع من الدواء؟

فبادرها مصطفى باسما:

ـ أجل، لم لا، من النوع الذى يؤخذ قبل النوم..

ـ لا تتعجل، الشفاء لا يجىء بالسرعة التى تتصورها..

ودعت الموسيقى إلى الرقص فمضى بها إلى المرقص وعندما أحاط

خاصرتها بذراعه وهام فى وجدانه شذاها حلا الليل ورقت الرطوبة وازدهرت مجامع الأشجار المتلألئة بالأحمر والأبيض من المصابيح.

ـ ليكن تعارفًا سعيدًا.

ـ أنت ظريف بقدر ما أنت طويل..

ـ لكنك لست قصيرة.

ـ ولكنى أخشى عينيك الحادتين..

ـ ليستا كذلك إلا لأنهما يشتعلان سرورا ولكنى كدت أنسى الرقص ويقينا أنى لا أحسنه..

ـ ألا ترى أنك أطول من أن تحسن الرقص!

ـ عندما دعانى صديقى إلى باريس الجديدة قال لى: «ستجد نمطا تحبه!».

ـ حقا؟

ما أجمل الكذب فى الخريف! وصفق لهما مصطفى وهما يعودان إلى مجلسهما. وأشرق وجه عمر بفرحة ساذجة.

واسترد فى لحظة معبقة بسحر الليل شباب الزمن الخالى ولمست الخاتم فى يسراه متمتمة:

ـ متزوج!.. أنتم أيها المتزوجون لا تتركون للعزاب فرصة..

فقال مصطفى ضاحكا:

ـ إنكما تتقدمان بسرعة مذهلة، أراهن على أنكما ستخرجان الليلة معا..

ـ خسرت الرهان!

ـ لماذا يا عزيزتى مارجريت؟.. صاحبنا محام لا يعرف التأجيل..

ـ إذن فعليه أن يعرفه!

ـ اللعنة على التقاليد الجامدة . .

ولكن عمر قال برقة :

ـ على أى حال سيارتى تحت أمرك لتوصلك إلى أى مكان .

واستقلت معه السيارة ليوصلها وهو من البهجة فى نهاية :

ـ إلى أين؟

ـ بنسيون أثينا . .

ـ ولكن هل رأيت الهرم بعد منتصف الليل؟

ـ لكنها ليلة مظلمة لا قمر فيها . .

فوجه السيارة نحو الهرم وهو يقول :

ـ المدينة حرمتنا من جمال الظلام . .

ـ لكن . .

فقال مطمئنا :

ـ أنا محام ، لا رياضى ولا قاطع طريق . .

والقلب لم يخرج من كهفه منذ مغانى الحدائق وقهوة العائلات . ووجه زينب القديم لا يكاد يتذكره . وحتى صورة الزفاف لم يلق عليها نظرة حقيقية منذ عشرة أعوام . وأنت يا مارجريت كل شىء ولا شىء . إنى أطرق بكل رجاء باب المدينة المسحورة . وها هو شعور الهارب يتملكنى .

ـ فى هذا الخلاء حول الهرم وقعت حوادث تاريخية .

فأبعدت ذراعه عن عنقها قائلة :

ـ لا تفكر من فضلك فى زيادة الحوادث . .

وضغط على راحتها ممتنا رغم كل شىء فقالت :

ـ الأفضل ألا تقف ، ألا ترى أن الهواء شديد؟

ـ لكننا فى حجرة محكمة!

ما أكثف الظلمة حولنا! تكاثفى حتى ينسانا العالم وليختف كل شىء عن العين الضجرة. آن للقلب وحده أن يرى. أن يرى النشوة كنجم متوهج. وها هى تدب فى الأعماق كضياء الفجر. فلعل نفسك أعرضت عن كل شىء ظمأ للحب. حبا فى الحب. توقا لنشوة الخلق الأولى، اللائذة بسر أسرار الحياة، التى خرجت من صراع مليون سنة بنبتة باهرة مذهلة.

ـ فلنبق حتى الصباح..

ـ لا تحلم، وصلنى من فضلك.

ـ ألم تسمعى عن مغامرات الليل فى الهرم؟

ـ حدثنى عنها غدا..

ومال نحوها فتبادلا قبلة، وهم بالإعراب عن رغبة أشد ولكنها قالت برجاء:

ـ قلت غدا..

ولثم خدها بخفة إعلانا عن تراجعه. وتحركت السيارة فوق الرمال.

ـ لا تزعل من فضلك..

ـ على أن أذعن للقوانين الأبدية.

ـ الأبدية؟

ـ أعنى قوانين الأنوثة.

ـ الحق أنى متعبة.

ـ وأنا كذلك، ولكنى سأعد مكانا مناسبا.

ـ انتظر حتى نلتقى..

ـ من الخير أن أبنى العش.

ـ انتظر قليلا .

ـ شيء يحدثني بأننا لن نفترق . .

فقالت وهي تنظر إلى الطريق :

ـ نعم . .

وعندما رجع إلى كورنيش النيل بجاردن سيتي كان الفجر وشيك الطلوع . تذكر وهو في المصعد زجر الأب في الأيام الخالية . ولما أضاء نور الحجرة رأى زينب جالسة فوق كرسي التسريحة تتطلع إليه بعين كسيرة من الضوء والحزن . وقال بهدوء :

ـ كان يجب أن تكوني نائمة . .

فقالت باسطة راحتيها في يأس :

ـ هذه ثالث ليلة . .

ببرود وهو ينزع ملابسه :

ـ شيء لابد منه . .

تساءلت في شيء من الحدة :

ـ أهو البيت ما يضايقك؟

ـ كلا ولكن الضيق واقع !

ـ وكيف تمضي الليل كله؟

ـ ليس مكان محدد ، سينما ، قهوة ، أتجول بالسيارة .

ـ وأنا هنا فريسة للأفكار . .

ـ بل يجب أن تنامي ملء جفنيك . .

ـ وسوف أمرض في النهاية .

ـ اعملي بنصيحتي . .

وهي تنفخ :

ـ أنت تعاملنى ببرود قاتل . .

لا مـراء فى ذلك . رجلك القـديم انسلخ من جلده . ها هو يركض لاهثا وراء نداء غامض . مخلفا وراءه حفنة من تراب . مسرات الأمس وحتى المدينة الفاضلة . . حفنة من تراب . وحتى فتاة النضارة الواعدة عندما دقت أجراس الكنيسة . ونظرت فى عينيها الخضراوين بافتتان وقلت :

ـ الحب يهزأ بالمخاوف . .

فتمتمت وهى تتعلق بك :

ـ ولكن أهلى . .

ـ أنا أهلك ، أنا كل شىء . وستقـوم القيـامة قبل أن يتخلى عنك حبى !

واليوم تتعلق حياتك بأغنية داعرة .

ـ نامى يا زينب رحمة بنفسك وبى . .

* * *

ولكن امرأة أخرى التى وقفت فوق المسرح الأحمر وغنت :

كلـما رأيتك كثيرا ازددت شهوة

وكلما ازدادت شهوتى زاد لهيبى

ومال نحو مصطفى متسائلا :

ـ أين مارجريت؟

فغاب مصطفى دقائق ثم عاد وهو يقول :

ـ مفاجأة غير سارة .

ـ وهى؟

ـ سافرت !

ـ أين؟
ـ خارج القطر!
ـ وهل يقع ذلك فجأة؟
لوح بيده فى استهانة وقال:
ـ لنبحث عن غيرها..

٨

تلك الدفعة الغادرة إلى الوراء فجرت رد فعل مضاد بقوة مضاعفة. وها أنت فى سباق حاد مع الجنون. وغايتك الأخيرة أن تنطلق غصون الشجر. وقد سأله مصطفى:
ـ أأنت واثق من أن ذلك هو الطريق إلى الشفاء؟
ـ ذلك راجح، وليس لدى الآن سواه..
وأوقفت السيارة أمام ملهى «كابرى» وقال وهما يمضيان نحوه:
ـ جربت كما تعلم أشياء وأشياء بلا جدوى، وواتتنى نبضة هامة أمام مارجريت، ومارجريت وإن تكن كذبة عابرة ولكن النبضة كانت حقيقية..
وجلسا تحت تكعيبة جانبية خافتة الضوء يلوح الجالسون تحتها كأطياف. وقال مصطفى:
ـ أما مدير هذا الملهى فهو صديقك..
وأشار إلى طرف المسرح البعيد حيث يقف رجل من النمط الكروى، بدين مع ميل إلى القصر برميلى التكوين، ذو وجه أبيض ملىء ينتهى أسفله بلغد غليظ منتفخ كأنه قربة، وفى عينيه نظرة نائمة تحت جفنين

ثقيلين، وفى جانب فيه انحراف شبه دائم يشى بالمرح. رأى الرجل مصطفى فانتقل إلى مجلسه بسرعة لا تناسب ثقله. وعرفه عمر، الزبون القديم الذى كسب له قضيتين وصافحهما الرجل بحرارة وجلس وهو يقول:

ـ عمر بك.. خطوة عزيزة..

وأمر بالويسكى واستطرد مخاطبا عمر:

ـ لم أحلم بأن تشرفنى أبدا وإن يكن العاملون هم أجدر الناس بالمرح..

وقال مصطفى بلهجة حاسمة:

ـ دعنا من الرسميات يا مسيو يازبك.

نظر إليه بحذر فقال مصطفى باسما:

ـ هو ما تظن، آن لك أن ترد الجميل لمحاميك.

ـ عمر بك؟

ـ خطر لى أن أسألك عن المرأة التى تراها لائقة به.

ابتسم الرجل ابتسامة غامضة وقال:

ـ تناسبه فى ظنى فتاة مثقفة، بنت ناس، جميلة..

ـ أقصد للحب لا للزواج!

ـ هو حر يا سيدى..

ـ وهل لديك شىء من المثقفات الفاتنات..؟

فلوح بيد صغيرة ناعمة وهو يقول بفخار:

ـ كابرى.. كابرى!

وأسهب وهو يرمق عمر بنظرة لم يختف منها الشك نهائيا:

ـ كانت طالبة بمعهد التمثيل، لم توفق فى السينما ولكنها تعبد الرقص، تألقت فى كابرى. .

ـ وردة!

ـ دون غيرها. .

وقال مصطفى كالمعتذر:

ـ لم أرشحها بسبب طولها الذى يصدنى عادة عن المرأة. .

وأشار يازبك إلى المسرح بثقة والموسيقى تعزف رقصة شرقية. وهدرت عاصفة من التصفيق تستقبل راقصة باهرة حقا تأخذ البصر بقامة مديدة قدت على مثال راقص مثير، وعينين واسعتين جدا تسيلان جاذبية ناعسة. وقد أضفى جبينها العالى على وجهها جلالاً رفعها إلى طبقة أخرى. وتمتم مصطفى:

ـ هائلة!

ـ أنت مطعم ضد الخطيئة الساحرة. .

ـ عندى اكتفاء ذاتى وهو عبث شائع بين الأزواج الصالحين. .

وابتسم عمر وهو يتذكر قول مصطفى من أنه لا يمكن أن يخون زوجته لأنه لم يوفق فى الحب إلا معها. ثم غاب عن أصوات المتحاورين وهو يتابع حركات الجسم الفارع، وخفته التى تتحدى طوله وجلاله، وسرعان ما عشق ابتسامتها كما عشق شجرة السرو. وانتبه على يد يازبك الممدودة ليصافحه مستأذنا فى الانصراف. ولما ذهب تلقى من مصطفى نظرة جادة وسمعه يقول محذرا:

ـ من النادر أن يظفر إنسان بنشوة الحب فى هذه الملاهى.

فتمتم عمر ساخرا:

ـ من جد وصل. .

ـ تعلم أننى كلما لقيت زينب هذه الأيام أوجعنى ضميرى؟!

فقال باستهانة :

ـ ثمة آلام أعنف من ترف الضمير . .

وأشار مصطفى إلى المتاعب التى تجىء من وراء العشق ، فقال عمر :

ـ كلما رأيت أنثى خيل إلىّ أننى أرى الحياة على قدمين . .

وأقبلت وردة فى حركة نشيطة ، بلا تلكؤ أو افتعال ، وهى تحدجه بنظرة ثابتة من عينيها الواسعتين الرماديتين ، وتنشر فى الهواء شذا خصلة من الياسمين مرشوقة فى أسورتها . وصافحته وهى تقول بسرور :

ـ أخيرا وجدت رجلا لا أنظر إليه من فوق!

وجلست بين الرجلين ، ونفضت يدها فتساقط الياسمين فوق غطاء المائدة الأحمر . وجاءت الشمبانيا وجرى الحباب . وتبدت وردة رزينة ولكن نمت نظرتها الرمادية عن ميل مؤجل للمرح . وبادلت مصطفى ابتسامة ألفة ليست بنت ساعتها . واستمعت إلى الثناء المنتظر عن رقصها وجمالها ولكنها جعلت تنظر طيلة الوقت إلى عمر باحترام . وتفحصها هو بعناية وهو يسأل الغيب عن الأمل المنشود وراء العينين الرماديتين . أنا لم أحضر لأننى أحب ولكننى حضرت لأحب . والبشرة صافية والشذا طيب والعين تحرك رموشها الطويلة لتنفث تعاويذها .

ـ إذن فأنت المحامى الكبير ؟

ـ هذا لا يهم إلا إذا كان لديك مشاكل . .

ـ مشاكلى لا تحل بالقضايا ويا للأسف . .

ـ وما وجه الأسف؟

ـ كان يمكن أن تحل على يديك . .

فقال مصطفى ضاحكا :

ـ إنه جدير بالثقة فى المحكمة وخارجها .

ورمق بحب استطلاع عنقها الطويل المطوق بعقد لؤلؤى بسيط ، وأعلى صدرها المنبسط فى رحابة ، ونضارة الجنس التى تنضح بها شفتاها الممتلئتان الملونتان والنظرة السائلة من عينيها ، فنبض وجدانه بشوق غريب غير محدود ، وتلهف غامض كالذى يساوره فى آخر الليل . وود أن يخاطب الأعماق وأن تخاطبه الأعماق بلا وسائط ، وأن يجد إن خانته النشوة المنشودة بديلا فى لذعة الجنس السحرية . الذروة المتفجرة التى تمتص رحيق الحياة وأحلامها فى رشفة واحدة زائلة ، وقلق من التلهف والترقب ودغدغة المغامرة . ومن سورة الشراب بلا حيطة . ومن شذا الياسمين المضغوط تحت قاعدة الكأس . ومن نظرة وردة الموحية بالقبول . ومن نجم يومض من خلال ثغرة فى التكعيبة ، وقال لها عندما أذنت السهرة بانتهاء :

ـ نذهب؟

وودعهما مصطفى وذهب . وتأثرت وردة لمنظر الكاديلاك التى وقفت كفيلة أنيقة .

ـ أين مسكنك؟

ـ غير ممكن ، أليس لك بيت؟

ـ فيه زوجة وابنتان . .

ـ إذن وصلنى لمسكنى كما يفعل الخياليون . .

انطلق إلى صحراء الهرم بسرعة جنونية . واستكن فى الخلاء كليلة مارجريت وتربيع القمر يتهاوى إلى المغيب . وضمها إليه بذراعه وتناول قبلة رشيقة كافتتاحية . ثم تبادلا قبلة طويلة تحدوها حرقة صراع فى مستوى القمر . وهمست فى تنهدة :

ـ هذا حسن . .

فضمها إليه بشغف تمادى فى خلوة الصحراء وأصابعه تتخلل شعرها المضىء بشعاع القمر. وهمس بصوت غريب لاهث:

ـ عندما يطلع الفجر..

وألصق خده بخدها وراحا ينظران إلى القمر الناعس فى مستوى البصر ويتابعان شعاعه الوانى المنطرح فوق الرمال. سوف يسحب ذيوله قبل أن يروى القلب الظامئ. ولا من قوة تستطيع أن تستديم اللحظة الإلهية. اللحظة التى وهبت الكون يومًا سرا جديدا. وها أنت تقف على أعتابها مستجديا. وتبسط يدك فى ضراعة للظلمة والأفق. والغيابات التى يهبط إليها القمر. لعل قبسا يشتعل فى صدرك كما ينبثق الفجر. وتتوارى مخاوف الإفلاس والعدم.

ـ أأنت خيالى؟

ـ بعيد عن ذلك لحد المرض.

وهى تضحك:

ـ ولست من الذين يضربون النساء؟

ـ ولا الرجال..

ـ هذا حسن.

وهو يضمها إليه أكثر:

ـ ولكنى شرعت يوما فى القتل!

ـ بسبب امرأة؟

ـ كلا.

ـ لا تتحدث هكذا أمام القمر..

ـ وأخيرا قررت أن أقتل نفسى..

ـ بين يدى؟

ـ بين يديك .

ـ وأمام القمر؟

ـ ها هو القمر يختفى . .

عندما رجع إلى مسكنه وأضاء المصباح فتحت زينب عينين جامدتين . حياها بلا مبالاة فقالت بنبرة متوترة :

ـ الصبح طلع . .

فأجاب ببرود :

ـ فليطلع . .

وجلست فى الفراش منتفخة الجفنين ملتاعة يائسة .

ـ لم أسمع منك هذه اللهجة منذ تزوجتك .

وارتدى بيجامته فى صمت فهتفت :

ـ لم أسمع أبدا . .

فتمتم واجما :

ـ هكذا المرض .

ـ وكيف لى باحتمال الحياة؟

ـ نهارى منغص فلا تنغصى ليلى . .

ـ البنتان تسألان . .

ـ آه . . فلنواجه الأزمة بشىء من الحكمة . .

وهى تدفن وجهها فى الجدار :

ـ لو كان لى مكان . .

أطفأ المصباح واستلقى مغمض العينين . لن تلبث أولى حركات الصباح أن تسمع . ودموع ولا شك تسفح إلى جانبى . على حين ترقد الخيانة مدفونة كحشرة . وما هى إلا لحظات حتى يموت الوجود .

مقطوعة من شجرة، لم يعد لها أحد سواك. يا للعجب من أين لك هذا التصميم كله؟! ونشوة الليلة مجنونة كالبرق فكيف تملأ فراغ الحياة؟

ويوم الجمعة سعى إلى بثينة فى الشرفة وهى تسقى أصص الورد. طالعها بابتسامة مرتبكة فوثبت نحوه مرحبة وأولته خدها ليلثمه. ورغم إشراقها لمح فى نظرتها المتهربة عتابا كالعبير الوانى.

ـ أوحشتنى جدا!

فعض باطن شفتيه وقال:

ـ آسف جدا ولكننى مصمم على الشفاء، وبحاجة إلى سماحة تفهمنى!

وعادت إلى أصص الورد فسألها:

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم..

ثم بعد تردد قالت:

ـ ماما ليست كذلك.

ـ لها حق ولكن سيتغير كل شىء بالسماحة الواجبة.. فأشارت إلى ياسمينة لا تكاد ترى وقالت بفرح:

ـ أول ياسمينة، صغيرة جدا ولكن رائحتها قوية، هل أقطفها لك؟

٩

ما أغرب الذهاب كل يوم إلى المكتب. مكان غريب لا معنى له فمتى توجد الشجاعة الكافية لإغلاقه. وقال له الوكيل:

ـ كل يوم أعتذر عن قضية، ألم تسمع عما تعانيه المهنة؟! وكدت أصبح بلا نشاط . .

وغيره يتحمل عبء العمل فى الواقع وهو بالكاد يوجه أو يرجع . وتحدق فيه من الجدران أعين قاتمة والهواء راكد عفن . وفى الخارج استغرقه إحساس خلاق لتجهيز الشقة الجديدة بميدان سليمان باشا . وقال لوردة :

ـ إنى سعيد بتجهيز عشنا فإن الهرم لا يصلح للشتاء .

فتساءلت وهى ترقص بكتفيها مع أنغام الجاز تحت تكعيبة كابرى :

ـ وهل يدوم اهتمامك بى حتى الشتاء؟

فرفع كأس الشمبانيا قائلا :

ـ فى صحة اهتمام دائم . .

ولمح على البعد يازبك فى وقفة مراقبة فخيمة فتبادلا ابتسامة ثم وضع راحته على يد وردة وهو يقول :

ـ إنى مدين له حقا .

ـ هو خفيف وطيب بالقياس إلى أمثاله، ولكنه جشع كالمنتظر . .

ـ ولكننى زبون شمبانيا!

فقطبت بلطف قرن بين حاجبيها وقالت :

ـ من الإسراف أن تجىء كل ليلة!

فتورد وجهه بهجة وتمتم :

ـ يا لها من تحية بيضاء!

وهى تحاصره بعينيها :

ـ ألم يشهد بذلك الهرم؟

ـ بلى يا عزيزتى، وهو من ناحيتى ليس اهتماما كما قلت ولكنه . . .

فأسكتته بضغطة على يده وقالت :

ـ لا تسمه، دعه يسمى نفسه فهذا أجمل . .

ـ أنت ظريف لحد الجنون!

ـ ولا ثقة لى فى الكلام إذ إننى فى الأصل ممثلة . .

ـ وسيدة بكل معنى الكلمة . .

ـ شكرا ولكن الفن سيئ السمعة عند الكثيرين، ولذلك انفصلت عن أهلى، ومن حسن الحظ لا أب لى ولا أخ . .

فتفكر لحظة ثم قال :

ـ التمثيل بلا شك أفضل من الرقص فى كابرى . .

ـ لم أحبه كما يجب، وقيل لى إننى بلا موهبة، وعشقت الرقص طوال الوقت، فكانت كابرى وكان ما لابد منه . .

فقال بحرارة :

ـ ولكن لك قلب من ذهب!

ـ لم أسمع ذلك من قبل . .

وكلف أكثر من رجل بالقيام بعمل فى تجهيز الشقة الجديدة. والأثاث والديكورات والبار والتحف. وفى أقصر مدة ممكنة تكونت على أجمل صورة حجرات للنوم والسفرة والمدخل، وحجرة شرقية تحيى فى الخيال أحلام ألف ليلة. وأنفق بلا حساب وكأنه يتخلص من ورم مالى أليم. وراح يتابع عينى مصطفى المنياوى وهما تجولان فى الأركان ذاهلتين، وعندما سددهما نحوه قال :

ـ خير من اللوم أن تحدثنى عن معنى الحياة!

ـ الحياة!

ـ سأدق الجدار الأصم فى كل موضع حتى يرن صوت أجوف يشى بالكنز المدفون!

فهز مصطفى منكبيه فى تسليم قائلا :

ـ من الجنون ما هو جميل . .

ـ لم أعرف للحياة طعما كما عرفتها فى الأيام الأخيرة ولذلك لا أبالى شيئا . .

قال مصطفى مبتسما :

ـ يازبك قلق متشائم مما يقطع بإخلاص الفتاة!

ـ هى إما بسيطة مخلصة وإما أنها أعظم ممثلة .

ـ لكنها ممثلة فاشلة!

وبهرها المنظر عند دخولها الشقة لأول مرة ، وهتفت بإعجاب :

ـ ذوقك شمبانيولى حقا ، ولكنك مسرف!

وهو يقبلها قبلات متقطعة :

ـ أليس هو عشنا؟!

ـ ولكننى لا أريد أن أرهقك ، ويجب أن تفهمنى على حقيقتى . .

ـ لولا فهمى حقيقتك ما فعلت شيئا . .

فضحكت بدلال وقالت :

ـ أنت المسئول وحدك عن فهمك . .

ـ والهرم؟

ـ عندما نصرخ للسعة نار فلا يعنى هذا أن الصراخ من طبيعتنا . .

فاضطجع على ديوان وهو يقول :

ـ أخبرنى مصطفى أن يازبك قلق؟

ـ رفضت أن أخرج مع أحد وليعض الأرض . .

ـ فليعض إلى ما شاء الله . .

ـ سوف أقصر عملى فى كابرى على الرقص . .

ـ خبرينى أأنت مستصفاة من ماء الورد؟

فمضت وهى تقول :

ـ الجو حار اليوم، سآخذ دشا فى الحمام الجديد .

وبدل ثيابه . وشعر بأن الجلباب كان أليق بالحجرة الشرقية من البيجاما . وقلب عينيه فى المكان الأنيق بارتياح وسعادة . وقال إن السعادة وحدها كفيلة بشفائه ولو تساهل فى الرجيم والشراب . وتملكته روح دعابة فتساءل بصوت مرتفع جدا :

ـ ماذا يفعل ماء الدش؟

فجاء صوتها من وراء الباب :

ـ غاية فى سوء الأدب . .

وفتح باب الحمام فمرقت منه متلفعة ببشكير ، وهرعت إلى حجرة النوم ثم ردت الباب وراءها . وأغمض جفنيه على رضا . فليكرر هذا العش نشوات الهرم . وليكن ما بين يديه ما ينشده . ما داس قلوبا صديقة فى سبيله . وما علمه الاستهتار القسوة . وألا يزول على غير انتظار كما زالت مارجريت . وزميلك المحامى الكبير قال لك فى مكتبك :

ـ تتراءى هذه الأيام أنيقا أكثر مما ينبغى لمحام قدير ناجح؟

فقلت ضاحكا :

ـ وأقل مما ينبغى لمحام سعيد . .

ونظرت إليه بريبة جديرة برجل ماجن عشيق ولكنه سرعان ما غير الحديث راجعا إلى حديث السياسة المفضل عنده فسأله :

ـ ماذا يفعل الناس فى هذه الأيام؟

فأجبت دون مبالاة بالسياسة :

ـ إنهم يبحثون بجنون عن النشوة .

ولم يفهم. إنه زير نساء ولست كذلك. لست ماجنا ولا عابثا. ولكن منذا يفرق بين قاتل وعابد. أو يصدق أنك تقيم للعربدة معبدا؟

وفتحت باب الحجرة نصف فتحة ثم أبرزت رأسها قائلة:

ـ ربما طال وقت الزينة وأنا فى حاجة ماسة إلى قبلة.

فهفا إليها. وأخذ خديها بين راحتيه حتى برزت شفتاها مضمومتين فقبلهما قبلة طويلة وهو يشم بتلذذ رائحة الصابون الزكية وشذا البشرة الآدمية. وهمس:

ـ هل أدخل؟

فدفعته ضاحكة وهى تقول:

ـ لا تكن بدائيا..

عاد إلى ضجعته فوق الديوان. ورأى أمامه الدولاب الملون الجامع للراديو والتليفزيون بين جناحيه فقام وأدارهما معا فى فرحة طفولية فتلاقت فى أذنيه ضجة متداخلة مناقشة عن جرائم الأحداث مع ما يطلبه المستمعون، ثم أسكتهما دون أن يتخلص من عبثه الطفولى فمضى إلى الباب المغلق ونقر عليه فجاءه الصوت:

ـ هه!

ـ أحبك.

ـ من كل قلبى.

ـ ما أعز أمنية فى حياتك؟

ـ الحب.

فتمادى فى عبثه البرىء متسائلا:

ـ هل فكرت يوما فى معنى الحياة؟

ـ لا معنى لها إلا الحب.

ـ وهل فرغت من زينتك؟

ـ لم يبق إلا القليل .

فاستطال تماديه وهو يسأل :

ـ عزيزتى ألا يقلقك أن نعبث والعالم من حولنا يجد؟

وهى تضحك عاليا :

ـ ألا ترى أننا نجد والعالم من حولنا يعبث؟

ـ من أين لك هذه البلاغة؟

ـ عما قليل ستعرف سرها . .

عندما يطوى الليل ستائره ويدركنا الفجر بلا رحمة فلا مفر من الرجوع إلى الحجرة الكئيبة ، حيث لا نغمة ولا نشوة . ستطاردك عينان حزينتان وجدار صخرى . ثم ترن أوتار الحكمة الكالحة باعثة كلمات تقريع جامدة خشنة كغبار الخماسين . ليكن ردك حازما قاصما كنفورك :

ـ لا تزعجينى .

ولتصم أذنيك عن أى كلام .

ـ قلت لا تزعجينى هكذا أكون ، اليوم وغدا وكل يوم .

ـ انزلى على حكم الأمر الواقع ، وأبعدى البنت عن مجال نزاعنا .

ـ لا جدوى من العناد وسوف أفعل ما يحلو لى .

ولا تتراجع إذا تساءلت عن علة تغيرك .

ـ ظنى كما تشائين ، الملل كره إلى الاعتذار .

وفتح الباب وخرجت وردة كأبهى ما يكون .

ـ كيف ترانى يا عزيز القلب؟

رنا إليها طويلا فى انبهار ، ثم غمغم :

ـ دعينى أكون جملة لم يسبق ذكرها على لسان .

١٠

جلست قبالته فى الشرفة، جلسة يوم العطلة، فقال لنفسه بعد ارتياح: حقا لم أرها منذ أسبوع كامل. و ألقت الشمس على حجرها وساقيها فيضا من شعاعها الذى يبرق لألاء فوق سطح النيل. ومن عجب أنه لم يعد يذكر كثيرا عن طفولتها، وهل كانت عفريتة كجميلة، ولكنها اليوم فتاة جميلة، ذكية مجتهدة وشاعرة، ومثال للأناقة. وأما فكرة أنها تكرر صورة قديمة لأمها فلتطردها عن ذهنك.

ـ أنت جادة أكثر مما ينبغى لشاعرة!

وصاحت جميلة وهى تقف على عتبة الشرفة متحدية:

ـ شاعرة!

هددها بإصبع ثم عاد إلى بثينة التى توجس وراء مظهرها الجاد زعلا أو احتجاجا..

ـ وأنت أنحف مما يجوز كما أن أختك أسمن مما يجوز، ماذا تأكلين؟ وماذا تأكل؟

وصاحت جميلة:

ـ تأكل!

وجاءت أم محمد فحملتها رغم المقاومة وذهبت. وقالت بثينة:

ـ ماما مريضة!

ـ ماما بخير، حدثينى عن نفسك.

ـ لا شىء مهم ولكن ماما ليست بخير.

ـ لن تكف عنك المطاردة فى هذا البيت. وأنت ألا يشغلك حقا إلا الشعر والرياضة والكيمياء؟ وهل الله وحده هو معشوقك؟!

ـ ألا يعجبك الحديث عن ماما؟

فقال مقطبا:

ـ لم تعد تفهمنى فى مرضى..

والتقت عيناهما لحظات فحول بصره إلى النيل منهزما.

ـ ولكن الدكتور يا بابا...

فقاطعها برقة لتخفى ضيقا:

ـ الحق أننى الطبيب ولا أحد سواى.

ـ معذرة فقد عودتنى على الصراحة معك.

ـ بلا شك.

وإذا بصوت رفيع حاد يصرخ:

ـ شك.

فقبض على ذراع الصغيرة حتى جاءت أم محمد فذهبت بها.

ـ هل أصبحنا نسبب لك الكدر؟

ـ لا سمح الله، لكن الإنسان يهاجر إذا ضاق بنفسه.

ـ إنها تبكى كثيرا وهذا مؤلم جدا.

ـ عليك أن تقنعيها بخطئها..

فقالت وهى تعبث بأسورة ساعتها الذهبية:

ـ لكن معاملتك لها تغيرت، وقلت لها بخشونة إنك ستفعل ما يحلو لك!

ـ أقالت ذلك أيضا؟

ـ أنا الوحيدة التى يمكن أن تشكو لها!

انقبض قلبه وتمتم :

ـ لكنه الغضب كما تعلمين .

ـ هى على أى حال مستعدة لأن تخفف عنك ضيقك بما فى وسعها . .

ـ ليس فى وسعها شىء !

وترددت لحظات ثم قالت :

ـ ألا تقدر أنها ربما تظن . . ؟

ـ أليس من الأفضل أن تطلعينى على آخر أشعارك؟

ـ لا جديد .

ـ لكن معشوقك لا يكف عن الإلهام . .

ـ ربما تظن أن . . كما تعلم؟

ـ أهى تصارحك حتى بالمخاوف السخيفة؟

ـ إنى حزينة حقا .

فقال وهو يشعل سيجارة :

ـ أوهام سخيفة .

فقالت بلهفة :

ـ إنى أصدقك ، أنت مثال أبدى للصدق ، أهى مجرد أوهام؟

ها أنت محاصر فى ركن صلد .

ـ أمك أزعجتك أكثر مما يجوز .

ـ قل إنها أوهام . .

فرمقها بعتاب ولكنها تجنبته ناظرة إلى النيل وهى تسأل :

ـ ليس هناك امرأة؟

وإذا بالصوت الرفيع يعلو :

ـ امرأة.

رفعها هذه المرة إلى حجره كأنما ليحتمى بها وراح يداعبها بشىء من العنف الأبوى الذى يناسب شقاوتها ولكن بثينة قالت بلهفة:

ـ أريد جوابا يا بابا.

ـ ماذا تظنين بوالدك؟

ـ إنى أصدقك فتكلم.. وحياتى عندك تكلم..

وفى يأس شديد قال:

ـ لا شىء.

تهلل وجهها فاربد قلبه. والتمعت عيناها بفرحة ظافرة فتجهمت الدنيا. وتجلى الخريف فى الجو. وانتشر فى أعالى الشجر اصفرار باهت. وعكست قوافل من سحب بيضاء نصاعتها فوق الماء الرصاصى. وتضمن الفراغ الخابى أنغاما صامتة من الرقة والحزن، وأسئلة مضنية عسيرة الجواب. وتضخمت كذبته حتى أنذرته بالعدم.

ومن شدة ضيقه زار مصطفى بمكتبه بالمجلة. وتجدد النقاش بلا نتيجة وقال له مصطفى:

ـ لقد جاريتك وساعدتك على أمل أن يبين لك عبث المحاولة ولكنك غرقت..

فهتف متنهدا:

ـ ألا تعلم أنى أعيش الفن الذى تلهفت يوما على خلقه؟!

وأكمل مصطفى صفحة بين يديه ثم بعث بها إلى المطبعة، وقال:

ـ كثيرا ما خيل إلىّ أنك تعانى أزمة حادة لفن مكبوت!

فرفض ذلك بهزة من رأسه وقال:

ـ لا، ليس الفن، ربما هو ما نلجأ بسببه أحيانا إلى الفن.

فتمهل مصطفى قليلا ثم قال :

ـ لعله لو كنا من العلماء الذين ينفقون عشرين عاما من العمر فى البحث عن معادلة لما عرفت التعاسة إلى نفوسنا سبيلا . .

فقال وهو يهز رأسه أسفا :

ـ لعل سر شقائى أننى أبحث عن معادلة بلا تأهيل علمى . .

مصطفى وهو يضحك :

ـ ولأنه لا يوجد وحى فى عصرنا فلم يبق لأمثالك إلا التسول!

ـ التسول! فى الليل أو النهار . . فى القراءة المجدبة والشعر العقيم . . فى الصلوات الوثنية فى باحات الملاهى الليلية . فى تحريك القلب الأصم بأشواك المغامرات الجهنمية .

وتحدث مصطفى عن زينب فقال إنها تعانى مرارة الهجر ومتاعب الحمل معا . أجل كم أنها متوعكة ولكن ما لقلبه قد تحجر ، وهو مستعد أن يجود لها بكل غال تحت شرط أن تحرره من استغلال حب ميت .

ـ أجل . . هناك امرأة ما دمت تصرين على أن تعرفى . .

والكراهية نبتت فى مستنقع آسن مكتظ بالحكم التقليدية والتدبير المنزلى . ولا عزاء فيما بلغناه من ثراء ونجاح فالعفن قد دفن كل شىء . وحبست الروح فى برطمان قذر كأنها جنين مجهض . واختنق القلب بالبلادة والرواسب الدسمة . وذبلت أزهار الحياة وتهاوت على الأرض ثم انتهت إلى مستقرها الأخير فى مستودعات الزبالة .

ـ ابكى ما شاء لك البكاء ولكن عليك أن تسلمى بالأمر الواقع .

فقد قتل الضجر كل شىء . وانهارت قوائم الوجود بفعل بضعة أسئلة . وقلت له تصور أن تكسب القضية اليوم وتمتلك الأرض ثم تستولى عليها الحكومة غدا فقال لى ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها؟

وكان فى مكتبه يراجع مذكرة فى فتور عندما دخل الساعى ليستأذن للمسيو يازبك. ودخل الرجل يتقدمه كرشه فسلم وانحنى ثم جلس وهو يقول:

ـ مررت بميدان الأزهار فقلت أزور وأحيى. .

فقال عمر بسخرية باسمة:

ـ قل إنك جئت من أقصى الأرض من أجل وردة!

ـ عزيزى الأفوكاتو العظيم، أنت تعلم أن حديقتى ملأى بالورد. .

ـ حسن، وإذن لا تتكلم عن وردة كلمة واحدة. .

فابتسم ابتسامة عريضة وقال:

ـ من الحمق أن أتصور أنه يمكن أن أغلبك، ولنتقدم فى أقصر طريق بين نقطتين. .

ـ أفندم؟

ثقلت جفونه وقال جادا:

ـ وردة لم تعد تقوم بواجباتها. .

ـ أعليها واجب غير الرقص؟

ـ سيدى، أنت لم تشرف كابرى تلك الليلة لترقص أو لتشاهد الرقص. .

ـ وإذن؟

ـ قلت أشكو إلى الرجل الكبير. .

فقطب عمر ولم ينبس، فقال الرجل:

ـ الشغل شغل يا عزيزى الكبير وأنا أحب. . .

فقاطعه ببرود:

ـ افعل ما تراه فى صالحك يا مسيو يازبك. .

ـ إنى أتحاشى إغضابك . .

ـ لكنى أنتحل لك العذر مقدما . .

فأحنى الرجل رأسه ممتنا وقال :

ـ وأعدك منذ الآن أن أعيدها إلى العمل إذا استغنيت عنها مستقبلا . .

ـ لن يجىء هذا اليوم يا مسيو يازبك . .

ـ أصدق تمنيات السعادة يا شيرى !

وهم بالقيام ولكنه استمهله بدافع عبثى مما يلم به دون تمهيد، وسأله :

ـ خبرنى يا مسيو يازبك ماذا تعنى لك الحياة؟

رفع الرجل حاجبيه الخفيفين دهشة، ولما قرأ الجد فى وجه صاحبه قال :

ـ الحياة هى الحياة . .

ـ أأنت سعيد؟

ـ الحمد الله، أحيانا يصاب الموسم بالركود، أو يصيب الملهى غرام مفاجئ كغرام وردة، ولكن القافلة تسير . .

ـ لكنك تعيش حياتك ثم يأخذها الله؟

ـ هذا مفهوم طبعا، ولكن بيتى جميل، والمدام عال، ولى ابن وحيد يتعلم الكيمياء فى سويسرا وسيعيش هناك . .

وهو يبتسم :

ـ هل تؤمن بالله؟

فأجاب الرجل بدهشة :

ـ طبعا، يا له من تحقيق طريف !

ـ إذن فقل لى ما هو الله؟

ضحك الرجل عاليا، وأزالت الأسئلة الغريبة الكلفة فسأل برجاء:

ـ هل يطول غرامك بوردة؟

ـ طبعا.

ـ ألا يمكن...

فقاطعه قائلا:

ـ أعدك إذا أخبرتنى ما هو الله أن أتركها لك فى الحال!

نهض الرجل، وانحنى مرة أخرى، وقال وهو ينصرف:

ـ ستجدنى دائما فى خدمتك.

١١

قبلها بشغف وامتنان وهو يقول:

ـ إنها لتضحية جسيمة أن تهجرى عملك!

فقالت وعيناها الواسعتان تلمعان بأنداء دموع:

ـ من أجلك.

وعبقت الحجرة الشرقية بأنفاس الحب. وقال إنه ما كان يظن أنه سيحبها بكل هذه القوة.

وأخرجت من جيب الروب علبة كحلية وأهدتها إليه فى حياء.. هدية أزرار ذهبية للقميص.

ندت عنه آهة فرح كأنه سيستعمل الذهب لأول مرة.

ـ حبيبتى..

ـ الزرار كما ترى مكون من قلبين . .

ـ ذلك أن قلبك من ذهب كما قلت لك . .

وراحت ترجل شعره الأسود الغزير بأصابعها ، ثم سألته :

ـ لم أتيت اليوم بملابسك وبدلك؟

فتجهم وجهه وقال بنبرة زايلها تطريب الغرام وحنانه :

ـ هجرت بيتى نهائيا . .

فهتفت بدهشة :

ـ لا . .

ـ هو الحل الوحيد .

ـ قلت لك إننى لا أحب أن أسبب لك المتاعب .

ـ لندع هذا الحديث جانبا . .

* * *

تكهرب جو الحجرة فى سكون الفجر . رمته بنظرة يائسة وغاضبة من عينين دمعت أسفلهما لطختان زرقاوان . ما أبشع شراسة الغضب فى وجه ظل أليفا طيلة عشرين عاما .

ـ ألم أنصحك بأن تروضى نفسك على قبول الواقع؟

ـ بل قل إنك تلطخ كرامتك مع امرأة ساقطة!

ـ سيوقظ صوتك النائمين . .

ـ انظر إلى الأحمر فى منديلك ، ما أقذر هذا!

وأعماه الغضب فصاح :

ـ فليكن ، وماذا بعد؟!

ـ بنتك فى سن الزواج!

ـ إنى أدفع عن نفسى الموت . .

ـ ألا تخجل؟! إنى خجلة من أجلك.

فصاح بغضب أشد:

ـ قبول الموت أدعى للخجل..

وسقط رأسها مع دموعها وهى تقول بصوت مختنق:

ـ عشرون عاما دون أن أعرف قذارتك..

فقال بجنون:

ـ إذن فلتكن النهاية..

ـ سأهيم على وجهى.

ـ بل تبقين فهذا هو بيتك وسأذهب أنا.

وارتميت على مقعد بحجرة الجلوس مغمض العينين من الألم. ورفعت رأسك على حس فإذا بثينة واقفة أمامك، ناعسة العينين من أثر النوم. شاحبة الوجه. ترمقك فى صمت فى جو مشحون بالعتاب والشعور بالإثم. وتذكرت الكذبة السوداء. وعصرك خزى لم تشعر به من قبل.

ـ آسف يا بثينة على إزعاجك.

وضح فى ضمة شفتيها الكبرياء الجريح.

ـ لا فائدة من الكلام.

ناءت بالأرض التى تحملها فوق عاتقها ولم تنبس.

ـ ستظل أمك فى البيت محاطة بكل رعاية..

ودعا الله فى سره ألا تبكى. وتمتم:

ـ إنه بلاء، ولكنى أدفع عن نفسى ما هو أشد.

ونظرت فى عينيه بنظرة حزينة جدا وقالت:

ـ ولكنك قلت لى «لا»..

وهو يتنهد محترقا :

ـ كان الصدق غير لائق .

ـ لماذا؟

فقال برجاء :

ـ فلنبق على ما بيننا من حب .

وذهبت . ليس من الممكن أن تتلقى نظراتها مرة أخرى قبل أن تصفح .

وقالت وردة :

ـ سوف تندم على قرارك .

ـ كلا ، لم أعد أطيق الحياة الكاذبة .

وفكرت فى قلق ثم تساءلت :

ـ كم أخشى أن أفشل فى إسعادك .

ـ لكننى سعيد بالفعل .

وأسلم نفسه للسعادة . ولم يسمح لأى فكرة معادية بأن تكدر صفاءه . وتوقع من بادئ الأمر معارضة من ناحية مصطفى ولكنه شكمه بلا تردد وقال له :

ـ إنى سعيد فهل تكره ذلك؟! حتى شيء من الشعر يتحرك فى أعماقى . .

وحتى العمل انفتحت له نفسه بعض الشيء وإن ظل على تحفظه فى قبول القضايا . وفى أويقات الراحة بين العمل كان يجدد نشاطه بمحادثتها عن طريق التليفون . ثم يهرع إلى عشه ليجده فى صورة باهرة ، وتطالعه صاحبته بوجه يتألق بالسعادة . وكانا يفضلان الحياة فى الحجرة الشرقية ، وفى بعض الأحيان ينطلقان إلى أطراف القاهرة ، إلى

ملتقيات العشاق، أو يقومان برحلات ليلية إلى الفيوم أو استراحة الطريق الصحراوى. ولما علمت بماضيه الشعرى الذى بشر ببعث جديد عملت على إيقاظه بمحفوظاتها المترعة. وكانت تحفظ تمثيليات شوقى منذ عهد دراستها بالمعهد كما حفظت الكثير من أشعار الغزل. وقال لها بإعجاب:

ـ ما أجمل حبك للشعر!

فحثته على تجديد شبابه الشعرى ولكنه قال بحذر:

ـ الشعر جميل! ولكن أجمل منه أن نعيشه!

وقالت له يوما:

ـ أنت لم تسألنى عن ماضىّ!

فقال وهو يقبلها:

ـ عندما تحل بنا بركة النشوة يملؤنا اليقين فلا نسأل عن شىء.

ولكنها كانت راغبة فى الحديث عن ماضيها فقالت:

ـ كان أبى مدرس لغة إنجليزية، من المدرسين الذين لا ينساهم تلاميذهم، ولو كان على قيد الحياة يوم أعلنت رغبتى فى دخول معهد التمثيل لشجعنى وباركنى، ولكن أمى سيدة متدينة جدا وضيقة العقل جدا فدخلت المعهد على رغمها، ولما قررت أن أحترف الرقص ثارت علىّ، وثار معها أخوالى وعم عجوز، وانتهى النزاع بالقطيعة، فهجرت أهلى.

ـ وكيف عشت وحدك؟

ـ قاسمت زميلة من ممثلات المسرح بيتها.

وراح يداعب يدها البضة بإعجاب، ثم سألها:

ـ أكنت تحبين الرقص من أول الأمر؟

ـ كنت أحبه ولكنى حلمت بأن أكون ممثلة، وبذلت جهدى ولكنى فشلت فقنعت بهوايتى الأولى . .

وتجهم وجهه وهو يسأل :

ـ وهل استبد بك يازبك؟

ـ الحق أنه ألطف من غيره، ولم أكن أجهل ما يعنيه العمل فى ملهى ليلى!

ثم بحرارة صادقة :

ـ ولكنك حبى الأول والأخير . .

فضمها إليه ضمة امتنان، وسأل :

ـ ولماذا لم ترجعى إلى أمك عقب فشلك فى التمثيل؟

ـ كان قد فات الأوان، ولى كبريائى . وقد زاد من حدته الفشل!

الفشل! اللعنة التى تدفن ولا تموت . ما أفظع ألا يستمع لغنائك أحد، ويموت حبك لسر الوجود، ويمسى الوجود بلا سر وتبعث الحسرات يوما لتخرب كل شىء .

وشهد مكتبه زيارات خطيرة من خاله وأخته الوحيدة . وضرعا إليه ألا يتزوج من «الراقصة» . وقال له خاله حسين كرم المستشار :

ـ استمرار هذه العلاقة سيحول دون اختيارك مستشارا يوما ما .

فقال له بشىء من الجفاف :

ـ ما فكرت فى ذلك ولا أردته . .

دافع عن سعادته بكل قواه . وبقوة اليأس الذى خنقه . وتبدى كطفل برىء دائم المرح، حتى قال له مصطفى ضاحكا :

ـ خبرنا الآن عن معنى الحياة .

فضحك عمر عاليا ثم قال :

ـ هذا السؤال لا يلح علينا إلا حينما يفرغ قلبنا .

الرنين الأجوف لا يصدر عن إناء ممتلئ. ولذلك فالنشوة هى اليقين. ولذلك فإن أملى الأخير أن يجود الحب بنشوة دائمة .

وقال مصطفى :

ـ أحيانا أرثى لك وأحيانا أغبطك!

فلمعت عيناه فى انتصار فاستطرد مصطفى :

ـ إنى أنطلق فى حياتى المزدحمة كالصاروخ ولكن ربما تذكرت فى يوم من أيام الخماسين أنى أطوى جوانحى على فشل قديم، وربما اعترضنى سؤال شيطانى عن معنى وجودى ولكنى سرعان ما أدفنه فى الأعماق كذكرى مخزية .

وسفعت رياح شتوية نوافذ المكتب وانقلب الأصيل ليلا، فاستطرد الذى يتحدى البرد بصلعته :

ـ لماذا نسأل؟ الحكاية أن العقيدة كانت تعطينا معنى متكاملا، وأننا نحاول أن نملأ الفراغ تحقيقا لقانون طبيعى، وأمس ثرت على لحظة ضعف ألمت بى وقلت إن تعليقاتى الفنية لها معنى، وبرنامج الماضى والحاضر بالراديو له معنى، وتمثيلياتى فى التليفزيون لها معنى، ولا يحق لى أن أسأل بعد ذلك .

ـ يا لك من فارس!

وتمادى فى تعداد انتصاراته قائلا :

ـ وأمس ثبت لى أننى قادر على حب زوجتى لدرجة لا تصدق حتى أنى اقترحت على رئيس التحرير أن أسجل الليلة فى «خبر الأسبوع الفنى». أما ابنى عمر الذى سميته للأسف باسمك فمراهق شكس، واهتمامه بالكرة يماثل اهتمامنا القديم بقلب العالم رأسا على عقب .

قلب العالم رأسا على عقب. انتهى فى السجن. وسوف يخرج يوما ما. بعد بضعة أعوام. وسوف تتلاقى الأعين فى دهشة مزعجة. فليكترث بذلك غيرى.

وقال مصطفى بلهجة أكثر جدية:

ـ اقترح على رئيس التحرير أن ألقى محاضرات عن التوعية الاشتراكية على موظفى وعمال الدار..

ـ بأى صفة؟

ـ بصفتى اشتراكيا عتيقا!

ـ وقبلت طبعا؟

ـ طبعا، ولكنى أتساءل: ما دامت الدولة تحتضن المبادئ التقدمية وتطبقها أليس من الحكمة أن نهتم بأعمالنا الخاصة؟

ـ كأن تبيع اللب والفشار وتتساءل عن معنى الوجود!

ـ أو أعشق لأبلغ اليقين!

ـ أو تسقط مريضا بلا علة!

وراحا يدخنان فى صمت. وإذا بعمر يسأله:

ـ كيف حالهم؟

ابتسم مصطفى وقال:

ـ زينب عال! استردت رصانتها ولكنها مرهقة بالحمل، وثمة خبر يجب أن تعلمه!

تجلى اهتمام فى عينيه فقال الآخر:

ـ إنها تفكر فى أن تبحث عن عمل بعد الولادة.

لوح بيده ممتعضا فاستطرد مصطفى:

ـ مترجمة مثلا، أخشى أن تصمم يوما على هجر البيت..

ـ لكنه بيتها . .

فحدجه بنظرة ساخرة وقال :

ـ بثينة مستغرقة فى دروسها ، وجميلة توشك أن تنساك!

فغض بصره فى ارتباك فعاد مصطفى يقول :

ـ أنا أقوم بالواجب ولا أتوانى عن نقدك مر النقد!

فقال عمر ضاحكا :

ـ منافق عتيق . .

ـ أما زوجتى فلا تكف عن شن الحرب عليك .

ـ طبعا . . طبعا . .

ـ وكثيرا ما أدافع عنك عندما نكون منفردين وأرجع سلوكك إلى «مرض نفسى خطير» ثم أؤكد لها فى نفس الوقت أنه مرض غير معدٍ . .

١٢

ليس كمثل وردة فى حبها أحد . هى مغرمة برجلها لحد الجنون ، مغرمة بعشقها لحد العبادة وهى متفرغة لحبها ، تقوم بجميع واجباتها بلا معين . وكان عمر ينظر إلى الجدران والأثاث واللوحات ، ويشم الورد فى الأصيص ، ويستمع إلى أنغام الحجرة الشرقية ، ثم يقول إنه آدم فى الجنة . وهى لا تطالبه بشىء وربما دفعها لابتياع ما يلزمها من ثياب وحوائج . وزاد وزنها فعالجته بالمشى وبشىء من الرجيم وحرصت ما استطاعت على ألا يفرط فى طعام أو شراب . وشعر تماما بأنها تذوب فى شخصه وتتفانى فى حبه وتتعلق به كأمل أخير . وفى ليالى الشتاء

الطويلة انطويا على نفسيهما . وطال بهما السهر فى الحجرة الشرقية ، يغرقان فى أحاديث لا نهاية لها ، عن الماضى والحاضر والمستقبل ، والواقع والخيال ، والحقيقة والحلم ، تتخللها القبلات والملاطفات ، ولولا الشرفة المغلقة المطلة على الميدان ما روعتهما بين حين وآخر عواصف الشتاء أو انهلال المطر . واستنفدت ليالى الشتاء الأحاديث . وشملهما الصمت أوقاتا ولكنه صمت مضمر للرضا والارتياح والطمأنينة المتبادلة . وطافت به مرة خيالات فابتسم ، ومرة وجم . وتخيل تصادم سيارتين عند مفترق الطريق وتطاير رجل وقور فى العمر فجزع . وهمس الصوت الحنون :

ـ أين أنت؟

فأجاب فى شبه حياء :

ـ لا شىء .

فطوقت عنقه بذراعها وقالت :

ـ أراهن أنه شىء هام!

هز رأسه نفيا فسكتت برهة ثم بفطنة قالت :

ـ لا أدرى لم لا تزورك بثينة وجميلة فى مكتبك؟

وكان يفكر فى العنكبوت الذى يبنى بيتا غاية فى الغرابة ليصطاد ذبابة ، ولكنه قال :

ـ بثينة لا تريد .

ـ هل بلغت رغبتك؟

ـ حملها إليها مصطفى .

ـ لم تحدثنى عن ذلك؟

ـ ليس للأمر أهمية .

ـ بل يهمنى كل ما يخصك .

ومنعا للخيالات الغريبة لعب التليفزيون دوره فجعلا ينتقلان بين القنوات الثلاث . وسأل مصطفى عنهما بالتليفون مرة فدعته إلى العش . ووجدت فيه رجلا يؤلف دون عناء فأغرته بتكرار الزيارة . وسأله مصطفى عن الشعر ومدى ما بلغه من خياله فأجابت وردة :

ـ إنه يكتب شعرا .

ولكن عمر احتج قائلا بازدراء :

ـ ما هو إلا إجهاض وقد مزقته .

فقال مصطفى مواسيا :

ـ السعادة أهم من الشعر . .

وأوشك أن يسأله «ولكن ما هى السعادة؟» ولكنه أشفق من العينين الرماديتين اللتين ترمقانه باهتمام . وبفضل التليفزيون والراديو ومصطفى تخففا من الحديث المعاد . وقال لنفسه : «يا إلهى!» . وتخيل أنه استحوذ على قوة سحرية وراح يستعملها فى تسلية الناس كأن يخفى فى غمضة عين دار الأوبرا حتى يتجمع الناس ذاهلين ، ثم يعيدها فى غمضة عين حتى يتصايح الناس من الذهول . ما أحوج الناس إلى جرعات مماثلة من السحر . وقال لنفسه مرة أخرى : «يا إلهى!» . وحدجها بنظرة ناعمة فسألته :

ـ لماذا لا تدعو أصدقاءك للسمر واللهو؟

فقال بهدوء :

ـ لا صديق لى إلا مصطفى!

وشعر بأنها تدارى إنكارا موضحا :

ـ لا أعتبر الزملاء والمعارف من الأصدقاء .

فعملت من ناحيتها على أن يكثرا من الخروج، وأن يمضيا السهرات ما بين السينما والمسرح، بل والملاهى الليلية.

ـ هذا أفضل من البقاء وحدنا فى البيت.

فوافق برأسه ولكنها رنت إليه بعتاب قائلة:

ـ أول مرة يخفق ذكاؤك فى مجاملتى!

فقال بعد فوات الفرصة:

ـ قصدت الثناء على مشروعاتك اللطيفة..

ـ أما أنا فلا أمل معاشرتك وحدك إلى الأبد.

ـ ولا أنا صدقينى..

وسخط على غفلته. وقال لنفسه للمرة الثالثة «يا إلهى». أما مصطفى فلم يخف عنه إعجابه بسعادته. وقال له يوما وهو يجالسه فى مكتبه:

ـ حدثنى عن حبك فإنه سيحملنى فى النهاية على اعتناق آراء جديدة فى الحياة..

وقرأ فى عينيه نظرة ناقدة لا تخلو من خبث فسأله:

ـ هل هنت على بثينة لهذا الحد؟

ـ أنت تعلم أنها مثالية وذات كبرياء ولكنها فى الأعماق تعبدك!

ـ ألم أوحشها الغادرة؟

ـ ستراك يوما ما، ولكن بالله حدثنى عن حبك..

فقال مقطبا فى تحد:

ـ كأقوى ما يكون!

ـ تصريح سياسى؟!

ـ أنت منافق ولا حق لك فى الاطلاع على أسرار القلوب. ضحك مصطفى طويلا وقال:

ـ دعنى أصفه لك كما أتخيله، الكلام اللذيذ نضب، المداعبات اختصرت، والشراب يكثر بلا حيطة . .

ـ مت بغيظك . .

يا للرعب! وردة محبة صادقة . وجميلة . يا إلهى! ما العمل لحماية النشوة من النعاس . أو لبعث الشعر الذى مات . يا أصيل الشتاء المعتم!

وسهرا ليلة فى ملهى باريس الجديدة . دون أى توقع ظهرت فوق المسرح مارجريت . تلقى ضربة من الماضى بلا حذر . ولكنه ضبط أعصابه بقوة وغنت :

كلما رأيتــك كثيرا ازددت شهوة

وكلما ازدادت شهوتى زاد لهيبى

وهمست وردة :

ـ يا لها من حكمة!

ولكن نظرة واحدة تتبادل بينك وبين مارجريت خليقة بأن تقرأ وردة فيها كتابا . وأعلن عن رغبته فى الذهاب فذهبا . وتسكعا بالسيارة فى ليل بارد وطرقات مقفرة . لا داعى للانفعال ولا معنى له . لكن عودتها المباغتة شجعت الملل المتردد على الاستفحال . وستقف على حافة الهاوية مرة أخرى . وعند اليأس تنطلق القوى المدمرة!

ومن مكتبه قال لوردة بالتليفون إنه مدعو لحفل تكريم زميل اختير مستشارا . وذهب إلى باريس الجديدة . ومضت مارجريت تغنى وهو ينتظــر . . ماذا جاء بى؟ وبهذه السرعة؟ وعم أبحث؟ هل انتهت وردة حقا؟

وجاءت مارجريت مرفوعة الرأس وجاءت الشمبانيا . وقالت مشرقة الوجه :

ـ كان من المؤسف أن أسافر فجأة . .

ـ فجأة؟

ـ تلقيت برقية من الخارج!

وتفحصها بحب استطلاع وهو يعجب للقوة التى تدفعه نحوها. ودعاها للذهاب معه فقالت:

ـ ليس الليلة..

ضبط أعصابه متسائلا:

ـ متى؟

ـ ليكن غدا.

وعاد إلى عشه حوالى الواحدة فوجد وردة جالسة بالحجرة الشرقية فقبلها ثم سألها كما كان يسأل زينب:

ـ ما زلت مستيقظة؟

فقالت بعتاب:

ـ طبعا!

ورنت إليه طويلا ثم قالت:

ـ أرجو ألا تكون أفرطت فى الطعام أو الشراب..

ولما استلقى فى البيجاما على الديوان زحفت نحوه حتى ألصقت شفتيها بشفتيه. ولم يكن راغبا فى شىء ألبتة ولكنه قال لنفسه: «لتكن ليلة شرعية!» ولم يدر كيف يعتذر فى الليلة التالية. وحدثته بالتليفون فلم يشر إلى غيابه المنتظر. ومضى إلى باريس الجديدة وهو يهنئ نفسه على استهانته. ورأى الضوء الأحمر يلون مارجريت بلون الجنيات الساحرات. وهزه منظر عنقها النحيل ودسامة صوتها. وغشى دخان السجائر الفوانيس الإسبانية المدلاة من سقف مزخرف برسوم العرايا. وتساءل من أين تتسلل النشوة إلى هذا المكان المغلق المعبأ برائحة الخمر

والسجائر؟ وراء عمود ضخم مضىء من الداخل رأى متعانقين فى ذهول الأموات. ولكن كيف اقتلعت وردة من نفسه كأنها زهرة صناعية؟ ولماذا يلح الموت على تذكيرنا بنفسه بين كل عمل وآخر؟ ومنذا يستطيع أن يؤكد أن هؤلاء السكارى موجودون؟

ولما انطلقت بهما السيارة نحو الهرم قالت:

ـ الليل بارد. .

فشغل جهاز التدفئة فقالت:

ـ لم لا تذهب إلى بيتك؟

ـ لا بيت لى. .

وأوقف السيارة فى محيط من الظلام تحت غطاء كثيف من السحب وقال بسرور:

ـ لا نجم واحد. .

وضمها إلى صدره بعنف يكاد ألا يحتمل. ومن دوامة أنفاس مختلطة همست:

ـ الظلام مخيف. .

فأسكتها بقبلة وقال:

ـ لا وقت للخوف.

مسها بديع. ولكن هذا لا شىء. المهم أن تلامس سر أسرار الحياة. واندفعت الكلمات المتقطعة فى أنات كلغة السكوت فى الليل وغنى الانسجام أغنية تبشر بحياة أفضل. وصهرت حرارة الأنفاس قلوبا أضناها البرد. وغابت الأعين حتى عن ظلمة الليل. وتنهد فؤاده فى ظفر وارتياح. وتنهد من ثقل الارتياح. يا إلهى! وتنهد فى فتور وغم. ونظر إلى الظلام البهيم وساءل نفسه أين النشوة الحقيقية؟ وأين مارجريت؟ فإن الظلام لم يبق منها على شىء. وعاد إلى عشه متجهم

الباطن. وقفت قبالته جامدة القسمات. حياها وهو يبتسم. ولبثا واقفين برهة مرهقة. وارتمى على الديوان قائلا:

ـ آسف...

فقاطعته:

ـ لا داعى لاختلاق المعاذير..

وذهبت فى الحجرة وجاءت ثم جلست على مقعد قريب وقالت:

ـ لاحظت جيدا أنك كنت بحاجة إلى تغيير..

ـ ليس الأمر بهذه البساطة..

فقالت بعصبية لم تفلح فى مقاومتها:

ـ التحقيق مهمة لا تسر، ولا داعى لعذاب لا موجب له، إنى أسألك سؤالا واضحا: هل فشلنا؟

فقال بصدق وخمول معا:

ـ لا مثيل لك، إنى أؤمن بذلك.

وهى تنظر بعيدا:

ـ كنت مع امرأة؟

تردد قليلا وقال:

ـ إن أردت الحقيقة فإننى لم أبرأ بعد من المرض!

فقالت بحدة لأول مرة:

ـ لكنه مرض لا يجد علاجا إلا عند امرأة..

ثم بهدوء قالت:

ـ ليس عندى لك إلا الحب فإن زهدت فيه انتهى كل شىء..

وراقبت صمته بيأس ثم استطردت:

ـ وتقلب الأهواء فى الشباب داء له علاج، أما فى العقلاء أمثالك فلا علاج له.

وأجال بصره فى الحجرة يائسا وقال :

ـ هل أنا مجنون ؟

ـ العجيب أن شخصيتك لا توحى بأى نزق!

ـ لكنى متهم بالجنون لسلوكى . .

هتفت بحدة :

ـ إن كنت تقصد معاشرتك لى فارجع إلى زوجتك!

ـ لا زوجة لى .

ـ إذن فلأذهب أنا ، مشكلتى أبسط من مشكلة زوجتك لأننى لن أعدم عملا أو مسكنا . .

وخزه قولها وأوشك أن يصرخ فى وجهها «اذهبى» ولكنه مد ساقيه وأغمض عينيه .

ـ كنت مع امرأة؟

فقال باستهانة وضجر :

ـ أنت تعرفين .

ـ من ؟

ـ امرأة .

ـ ولكن من تكون؟

ـ لا يهم .

ـ عرفتها قبل أن تعرفنى؟

ـ مقابلة عابرة .

ـ تحبها؟

ـ كلا .

ـ لم ذهبت معها إذن؟

ـ هه . .

ـ لعلها رغبة طارئة؟

ـ يعنى!

ـ وهل ترضخ لأى رغبة؟

ـ ليس فى جميع الأحوال .

ـ متى؟

باستهانة وضجر :

ـ عند الإحساس بالمرض .

ـ هل أنت مولع بالنساء؟

ـ كلا .

ـ ألم تكن تحبنى؟

ـ بلى .

ـ ولكنك لم تعد تحبنى .

ـ أحبك ولكن عاودنى المرض . .

فقالت بحدة :

ـ لاحظت تغيرك منذ أيام .

ـ منذ عاودنى المرض .

فهتفت بحنق :

ـ المرض . . المرض!

ثم وهى تنظر نحوه بسحنة منقلبة :

ـ هل ستقابلها مرة أخرى؟

ـ لا أدرى . .

ـ أيسرك أن تعذبنى؟

فنفخ قائلا :

ـ قليلا من الراحة من فضلك .

وذهب بمارجريت إلى استراحة الطريق الصحراوى فى ليلة شتاء باردة ولكنها صافية السماء مرصعة بالنجوم . وعند العودة قالت برقة :

ـ أليس من الأفضل أن يكون لنا مأوى؟

فأجاب بغموض :

ـ كلا . .

وقد اقتنع بأنه لا جدوى من الاستمرار ولكنها استاءت من إجابته وقالت ببرود :

ـ أنا لا أرتاح لمغامرات الطرق .

فأوصلها إلى الفندق دون أن ينبس بكلمة .

١٣

نشوة الحب لا تدوم ونشوة الجنس أقصر من أن يكون لها أثر . وماذا يفعل الجائع النهم إذا لم يجد الغذاء . والعاصفة الهوجاء تجتاحك لتقتلعك . والاستقرار مات ولا سبيل إلى بعثه . وثمة راقصة سمراء بباريس الجديدة أعجبته رشاقة قدها ومرح نظرتها فذهب إلى الملهى دون مبالاة بالآخرين . وحيته مارجريت من فوق المسرح بابتسامة فابتسم لها ثم دعا السمراء إلى مجالسته . قد تظن مارجريت أنه يمارس معها ألعوبة غليظة من ألاعيب الغرام ولكنه فقد فى العاصفة روح الدعابة . وأغرى

السمراء بالنقود لتذهب معه ففعلت. ليس أفضل ولكن خيل إليه أن قلبه اهتز مرة وهى تضحك. على هذا القلب أن يهتز أو أن يموت. لا الشعر ولا الخمر ولا الحب فأى نداء تلبى تلك النشوة المستعصية!

وكل ليلة يذهب بامراة. من هذا الملهى أو ذاك أو حتى من الطريق. وعندما ذهب إلى كابرى ودعا راقصة تدعى منى هرع إليه يازبك مرحبا مستبشرا فحنق على فرحته التى اعتدها نعيا لجهاده الخائب.

ـ إكسلانس. . هل. .

فعبس فى وجهه بجفاء أجفله ومضى بمنى وهو يضمها فى حضنه أرعشته رغبة غريبة فى قتلها. وتخيل أنه يشق صدرها بسكين فيعثر فى داخله عما يبحث عنه. القتل هو الوجه الخلفى للخلق وهو تكملة الدورة الملغزة التى لا تتكلم. وهمست منى:

ـ مالك!

فقال وهو يصحو منزعجا:

ـ لا شىء إنه الظلام. .

ـ ولكن لا أحد حولنا. .

وساق السيارة بسرعة جنونية حتى قبضت على ساعده. ثم هددته بالصراخ. وهو يغير ملابسه قال لنفسه لابد من شىء، الشىء أو الجنون أو الموت. وجلست وردة فى الفراش وهى تقول:

ـ أنا ذاهبة. .

فقال برقة:

ـ إنى مسئول عنك.

ـ لا أريد شيئا. .

وعادت تقول بعد صمت:

ـ من المحزن أنى أحببتك بصدق .

فقال بملل :

ـ ولكنك لا تصبرين علىّ .

فقالت بلهجة قاطعة :

ـ نفد الصبر .

وعافتها نفسه فلم يعقب .

وعاد فى الليلة التالية فلم يجد لها أثرا . ابتسم فى ارتياح واستلقى ببدلته على الديوان مستمتعا بالشقة الصامتة الخالية . وكل ليلة ساق إليها امرأة جديدة .

وقال له مصطفى وهو يضحك :

ـ أهلا بأكبر زير نساء فى القارة الإفريقية !

ابتسم فى فتور فاستطرد الرجل :

ـ سرك يذيع يوما بعد يوم ، حدثنى عنك أكثر من زميل من زملائى ، وترامت أخبارك إلى بعض زملائك بالنادى ، وهم يتساءلون ماذا قلبه وكيف جدد شبابه؟

قال بنفور :

ـ الحق إنى أكره النساء . .

ثم بلهجة جدية :

ـ أفرغ ما فى نفسك من اضطرابات كى تستقر بعد ذلك بصفة نهائية .

وجاء الربيع فسره أن تنطلق السهرات من القاعات المغلقة إلى الحدائق . وعانى الضجر والأحلام المرهقة . وفى أوقات تسلى بقراءة الشعر فهفت نفسه إلى أشعار الهند وفارس . وحملته مغامراته الليلية إلى كابرى مرة أخرى . وجلس تحت التكعيبة يشرب كأسا ويتلقى

نفحات الربيع من وراء السرو. وعزفت أنغام راقصة فإذا بوردة فوق المسرح. لم يدهش لذلك ألبتة فلم ينزعج ولم يبتسم. كان ذلك فى الخريف. وتواصلت الفرحة بالنشوة بالحب ثم كان الجفاء. الدورات المفرغة فمتى يحطمها القلب المحزون. متى يخترق الفضاء لغير رجعة. وها هى تلمحه ثم تواصل رقصها. وها هو يازبك يسترق النظرات فى قلق مضحك. أما هو فخلا من القرارات عزمه. ورأى عقب الاستعراضات وردة غير بعيدة فدعاها إلى مائدته. وجاءت باسمة الثغر كأن ما كان لم يكن. وطلب الشراب الذى اشتهر به فى الملاهى الليلية. وقال لها بصدق:

ـ الحق إنى آسف يا وردة.

فقالت وهى تبتسم ابتسامة غامضة:

ـ لا يجب أن تأسف على ما فات..

ثم بنبرة ساحرة:

ـ وتجربة الحب ثمينة ولو بالعذاب!

فقال وهو يعض شفته:

ـ لست طبيعيا..

فقالت بصوت مهموس:

ـ إذن فلندع لك بالسلامة.

وتلاقت عندهما نظرات النساء اللاتى مضى بهن ليلة بعد أخرى فابتسمت وردة وتمتم هو:

ـ بلا رغبة!

فتساءلت برفع حاجبيها فقال:

ـ عرفتهن بلا استثناء ولكن بلا رغبة!

ـ ولماذا إذن؟

ـ لأن اللحظة الإلهية لا تجود بنفسها أكثر من ثانية واحدة!

فقالت بامتعاض:

ـ ما كان أقساك! إنكم لا تؤمنون بالحب إلا إذا كفرنا به . .

ـ ربما، ولكن مشكلتى غير ذلك . .

وحمل إليه النسيم من الحقول الغارقة فى الظلام شذا مسكرا من زهر البرتقال فتح له عوالم خفية من المسرات، فطرب طربا استخفه وأخرجه من قيود الاتزان، فسألها بشغف:

ـ خبرينى يا وردة لماذا تعيشين؟

فهزت منكبيها وأتت على كأسها. ولكنه كرر سؤاله بجدية لا لبس فيها، فقالت:

ـ وهل لهذا السؤال من معنى؟

ـ لا بأس أن نسأله أحيانا.

ـ إنى أعيش، هذا كل ما هنالك.

ـ بل إنى أنتظر جوابا أفضل . .

فكرت قليلا ثم قالت:

ـ لنقل إنى أحب الرقص، والإعجاب، وأتطلع إلى الحب الحقيقى!

ـ هذا يعنى أن الحياة عندك هى الحب . .

ـ ليكن . .

ـ ألم تحبى مرة ثم كرهت الحب؟

فقالت بامتعاض:

ـ غيرى فعل . .

ـ وأنت؟

ـ كلا . .

ـ كم مرة أحببت؟

ـ قلت لك يوما . . .

ولكنه قاطعها :

ـ لندع جانبا ما قلته يوما ، صارحينى الآن بكل شىء . .

ـ ها هو طبعك الوحشى يغلبك . .

ـ ألا تريدين أن تتكلمى؟

ـ قلت ما عندى . .

فتنهد آسفا ، ثم سألها محموما :

ـ والله ، ما موقفك منه؟

حدجته بنظرة ارتياب حادة ، فقال بتوسل :

ـ أجيبينى من فضلك يا وردة .

ـ أؤمن به . .

ـ بيقين؟

ـ طبعا . .

ـ من أين جاء اليقين؟

ـ إنه موجود وكفى . .

ـ أتفكرين فيه كثيرا؟

ضحكت كالمرغمة وقالت :

ـ عند كل حاجة أو شدة . .

ـ وفيما عدا ذلك؟

فقالت بحدة :

ـ ألا ترى أنك تحب تعذيب الآخرين؟

ولبث فى الملهى حتى الثالثة صباحا ثم انطلق بسيارته ـ وحده ـ إلى الطريق الصحراوى. وقال إن خروجه وحده هذه الليلة يعتبر تطورا ذا شأن. ثم أوقف السيارة فى جانب من الطريق المقفر وغادرها إلى ظلمة شاملة. ظلمة غريبة كثيفة بلا ضوء إنسانى واحد. لا يذكر أنه رأى منظرا مثل هذا من قبل، فقد اختفت الأرض والفراغ ووقف هو مفقودا تماما فى السواد، ورفع رأسه قبل أن تألف عيناه الظلام فرأى فى القبة الهائلة آلاف النجوم عناقيد وأشكالا ووحدانا، وهب الهواء جافا ولطيفًا منعشا موحدا بين أجزاء الكون. وبعدد رمال الصحراء التى أخفاها الظلام انكتمت همسات أجيال وأجيال من الآلام والآمال والأسئلة الضائعة. وقال شىء إنه لا ألم بلا سبب وإن اللحظة الفاتنة الخاطفة يمكن أن تمتد فى مكان ما إلى الأبد. وقد يتغير كل شىء إذا نطق الصمت وها أنا أضرع إلى الصمت أن ينطق. وإلى حبة الرمل أن تطلق قواها الكامنة وأن تحررنى من قضبان عجزى المرهق. وما يمنعنى من الصراخ إلا انعدام ما يرجع الصدى. وأسند جسمه إلى السيارة ونظر نحو الأفق. وأطال وأمعن النظر. وثمة تغير جذب البصر. رق الظلام. وانبثت فيه شفافية. وتكون خط فى بطء شديد ومضى ينضح بلون وضىء عجيب. كسر أو عبير. ثم تؤكد فانبعثت دفقات من البهجة والضياء والنعسان. وفجأة رقص القلب بفرحة ثملة. واجتاح السرور مخاوفه وأحزانه. وشب البصر إلى أفراح الضياء يكاد ينتزع من محاجره. وارتفع رأسه بقوة تبشر بأنه لن ينثنى وشملته سعادة غامرة جنونية آسرة وطرب رقصت له الكائنات فى أربعة أركان المعمورة. وكل جارحة رنمت وكل حاسة سكرت واندفنت الشكوك والمخاوف والمتاعب. وأظله يقين عجيب ذو ثقل يقطر منه السلام والطمأنينة. وملأته ثقة لا عهد له بها وعدته بتحقيق أى شىء يريد، ولكنه ارتفع فوق أى رغبة وترامت الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب. لا شىء. لا

أسأل صحة ولا سلاما ولا أمانا ولا جاها ولا عمرا. ولتأت النهاية فى هذه اللحظة فهى أمنية الأمانى.

ولبث يلهث ويتقلب فى النشوة. ويتعلق بجنون بالأفق. تنفس تنفسا عميقا كأنما ليسترد شيئا من قوته عقب شوط من الركض المذهل. وشعر بدبيب آت من بعيد من أعماق نفسه. دبيب إفاقة ينذر بالهبوط إلى الأرض. عبثا حاول دفعه أو تجنبه أو تأخيره. راسخ كالقدر، خفيف كالثعلب، ساخر كالموت. تنهد من الأعماق واستقبل موجات من الحزن. وأفاق والضياء يضحك.

رجع إلى مجلسه بالسيارة. ودفعها بلا حماس. ونظر إلى الطريق بفتور كأنما يخاطب شخصا أمامه:

ـ هذه هى النشوة.

وقال بعد صمت:

ـ اليقين بلا جدال ولا منطق..

ثم بصوت مسموع أكثر:

ـ أنفاس المجهول وهمسات السر..

وتساءل وهو يزيد من سرعة السيارة:

ـ ألا يستحق أن ينبذ كل شىء من أجله؟

١٤

استيقظ فى عشه الخالى على رنين جرس التليفون فتناول السماعة. وجاءه صوت مصطفى:

ـ أين كنت طوال الليل؟

ولما لم يجب قال :

ـ زينب فى مستشفى الولادة .

ومرت لحظات قبل أن يفقه المعنى ثم تذكر أنه زوج وأب وأن مزيدا من الأبوة ينتظره .

وفى بهو الاستقبال بالمستشفى وجد مصطفى وبثينة وعليات زوجة مصطفى وهى امرأة رزينة قوية الشخصية فى الأربعين من العمر ممتلئة مع ميل إلى القصر مستديرة الوجه والقسمات . ولما جاء دور بثينة فى المصافحات مدت له يدها وهى تغض البصر لتخفى وجومها .

وقال مصطفى :

ـ هى فى حجرة الولادة، وكل شىء طبيعى . .

وهّم بالذهاب إلى الحجرة فقالت عليات بحذر :

ـ كنت بالداخل ، وها أنا ذاهبة إليها . .

ـ ألا أدخل أيضا؟

فقال مصطفى :

ـ يحسن تجنب الانفعالات الطارئة . .

ولم يطل بهم الانتظار فقد رجعت عليات متهللة الوجه وهى تقول لعمر :

ـ مبارك عليك ولى العهد ، وزينب فى طريقها محمولة إلى حجرتها . .

نظر إلى بثينة بشوق ، ثم جلس إلى جانبها واضعا راحته فوق يدها دون الكلام فتركها بعض الوقت حياء ثم سحبتها برقة . وقال مصطفى وهو يتابع الحركات الخفية :

ـ من حسن الحظ أن المستشفيات من الأماكن التى تنسى فيها الخصومات . .

فسألها ولا يزال يشعر بخيبة أمل لانسحاب اليد :

ـ متى جاءت إلى هنا؟

ـ حوالى منتصف الليل . .

والمناقشة دائرة مع وردة فى إعياء تنعشه الشمبانيا .

ـ ولم تذهبى إلى المدرسة . . ؟

ـ طبعا جاءت مع مامتها . .

ـ شكرا لك يا عليات وشكرا لك . .

فقالت عليات وهى تغادرهم إلى حجرة زينب «عفوا»، ثم قال مصطفى :

ـ وقد تعبت جدا عند الفجر . .

آه . . الفجر فى الصحراء والنشوة الخيالية الخالدة، ولكن أين؟ واستأذن مصطفى فى الذهاب لينام فلبث هو وبثينة وحدهما ينتظران . وانتبه بحساسية إلى حرج موقفه . وقال بعطف :

ـ لم تنامى يا بثينة؟

فهزت رأسها بالإيجاب وهى تنظر إلى سجادة البهو السحابية اللون :

ـ ألا ترغبين فى محادثتى؟

فخجلت من المقاطعة الصريحة وتساءلت :

ـ ماذا أقول؟

ـ أى شىء، ومهما يكن من أمر فأنا أبوك وصديقك وما بيننا من علاقة لا يمكن أن ينفصم .

ولاذت بالصمت فى تأثر شديد .

ـ ألا توافقيننى على ذلك؟

فهزت رأسها بالإيجاب ورسمت شفتاها لفظ الموافقة .

ـ أنت زعلانة ، وهذا طبيعى ، ومهما يكن من الأمر فهو لا يمسك مباشرة . ومقاطعتك لى غير مقبولة ، وقد دعوتك مرارا لزيارتى فلماذا لم تحضرى؟

ـ لم أستطع . .

ـ هل منعك أحد؟

ـ كلا ، ولكننى كنت حزينة جدا . .

ـ أكان حزنك أكبر من حبنا؟ !

فقالت بمرارة :

ـ لم تزرنا مرة واحدة .

ـ لم يكن ذلك بالممكن . ولكنى دعوتك مرارا فكان عليك أن تأتى ، وقد نغص امتناعك راحتى ولم تكن فى حاجة إلى مزيد .

فقطبت لتكتسب صلابة تطرد بها حنان الدمع وقالت :

ـ منعنى حزنى . .

ـ يا للأسف لا أحب لك السلبية ، وكنت فى حاجة إليك فى غربتى !

وابتسم ليخفف من توتر الجو ثم قال :

ـ حسبنا عتابا ، لا وقت الآن لذلك . .

وربت منكبيها وسألها مغيرا المجرى :

ـ ما أخبار الشعر؟

فابتسمت ابتسامة خفيفة لأول مرة فقال بحرارة :

ـ لعلنا لم نكن فى يوم من الأيام أقرب ما نكون لبعضنا مما نحن فيه اليوم !

ـ ماذا تعنى؟

ـ يخيل إلى أننا حول منبع واحد . .

حولت إليه عينيها الخضراوين مستزيدة فقال :

ـ رجعت إلى الشعر أقرأه وأحاوله . .

ـ حقا؟

ـ مجرد محاولات فاشلة . .

ـ لمه؟

ـ لا أدرى، ربما لأن الغبار أكثف من أن يُزال بنفضة واحدة أو لأن أزمتى أقوى من الشعر . .

ـ أزمة؟!

ـ أعنى مرضى . . !

فابتسمت وهى تنظر إلى الأرض فسألها بإنكار :

ـ ألا تصدقيننى؟

ـ أصدقك دائما!

فحزه قولها وقال :

ـ يجب أن تصدقينى رغم الكذبة الوحيدة فى حياتنا، كانت كذبة ضرورة ولن تتكرر، أما مرضى فهو حقيقى . .

ـ ألم تعرف بعد ما هو؟

فكر قليلا ثم قال :

ـ عذاب يعالج بالصبر الطويل . .

فتساءلت فى إشفاق :

ـ بعيدا عنا؟

فقال بهدوء ويقين :

ـ أنا أعيش وحيدا!

فرمقته بنظرة استغراب فقال :

ـ وحيدا، صدقيني . .

ـ ولكن . .

ـ الآن وحيدا .

فتساءلت بلهفة أرضت عواطفه :

ـ ولِمَ لم تعد يا بابا؟

فلثم خدها المورد وقال :

ـ لعله من الخير أن أبقى كذلك . .

ـ كلا . .

وأمسكت بيده وكررت :

ـ كلا . .

وجاءت عليات لتدعوه إلى الحجرة فذهب . رأى زينب مغطاة بملاءة بيضاء إلا الوجه . .

وتبدى الوجه شديد الشحوب ممصوص الحيوية نصف مغمض العينين . شعر بعطف واحترام ورثاء . وقال ها هى تخلق على حين يعجز هو عن الخلق . وتمتم بشىء من الارتباك :

ـ حمدا لله على سلامتك . . فردت بشبه ابتسام فقال :

ـ مبارك عليك ولى العهد!

وجلس محاصرا بالحرج حتى خفف عنه دخول عليات وبثينة وأحسنت عليات ملء الجو بالنوادر والملح فمر الوقت دون إرهاق وجاءوا بالمولود فى فراشه . . وكشفوا عن وجهه . رأى كتلة لحمية متموجة حمراء، ممطوطة القسمات، ليس من اليسير أن يتصور أن سيكون لها شكل فضلا عن شكل مقبول . ولكنه تذكر تجارب مماثلة

سابقة تنحنى إحداها فوق فراش الوليد لترمقه بدهشة وحنان من عينيها الخضراوين. ولم يجد نحوه شعورا مميزا غير أنه أدرك أنه سيحبه كما ينبغى وقنع منه بنظرة حياد متسائلة. لو لم تكن عاجزا عن التعبير كأبيك لسألتك عن مشاعرك وعن ذكرياتك عن العالم الذى جئت منه لتوك.

وسألت عليات:

ـ هل اخترتم له اسما؟

فأجابت بثينة:

ـ سمير..

إذن فليحمه اسمه من الضجر. وقالت عليات بلهجة ذات مغزى:

ـ لتكن نشأته فى أحضان والديه!

و رغم انسيابه فى أسرار الخلق لم يساوره أدنى أمل فى التغير. و لا خرج من غربته الأبدية. و لم يملأ الوليد الثغرة التى تفصل بينه و بين زينب. وراح يتساءل حتى متى يبقى فى مجلسه محطا للنظرات والتساؤل؟

وأزف وقت الغداء فاستأذن فى الانصراف وذهب، ولحقت به بثينة خارج الحجرة وقد استردت شجاعتها الطبيعية الصريحة معه. قالت:

ـ بابا.. لن تبقى وحيدا..

وكان يعلم أنه لم يعد بحاجة إلى شقته الخالية، وأنه يحلم بوحدة جديدة، فتساءل مستسلما:

ـ ماذا تريدين؟

ـ أن تعود..

فلثم خدها وهو يقول:

ـ على شرط ألا تضيقوا بى . .

وتأبطت ذراعه، وأوصلته حتى الباب الخارجى بوجه مشرق .

١٥

العود إلى البيت دون تغير . لا كراهية لزينب ولا حب لها . واختفاء الكراهية دليل على اختفاء زينب نفسها . ودليل انتصار نهائى على دنياها . وانتصار الغربة الزاحفة . وقال لها :

ـ علينا أن نتقبل محنتنا بشجاعة .

وتبدت شجاعة حقا . حتى حجرته هجرتها . وقال لها بتأثر :

ـ أنت مثال للكمال .

وانقطع عن مغامرات الليل الخائبة . ووهبته بثينة وجميلة وسمير مسرات لا تنكر . والنيل يجرى تحت الشرفة بلا توقف وهو يسأل بلهفة متى تعود رحمة الفجر فى الصحراء؟ واعتكف فى حجرته طول الليل يقرأ ويتأمل حتى يجىء الفجر . فيمضى إلى الشرفة وينظر إلى الأفق يتساءل : أين الرحمة؟ أين؟ وها هى ترانيم فارس والهند والعرب المليئة بالأسرار ولكن أين السعادة؟ أين؟ !ولم تشعر بالكآبة وأنت بين هذه الجدران الرحيمة؟ وما هذا الشعور المقلق الذى يهمس لك بأنك ضيف غريب موشك على الرحيل؟ وإلى أين؟ وقال مصطفى :

ـ الحمد الله على أن عاد كل شىء إلى أصله .

فقال بازدراء :

ـ لم يعد شىء إلى أصله . .

فتجنب المناقشة فى إشفاق فقال عمر بتحد :

ـ لم أعد إلى البيت، لم أعد إلى العمل . .

ـ ولكن يا عزيزى . .

ـ ولا يعرف أحد ماذا تقول الساعة التالية .

وفيما كان بمكتبه عصرا إذ فتح الباب ودخل رجل ربعة، متين البنيان، شاحب اللون، كبير الوجه، حليق الرأس، قوى الفكين والأنف، يشع من عينيه العسليتين نور حاد. نظر إليه عمر منكرا لأول وهلة ثم انتتر واقفا وهو يهتف بصوت متهدج :

ـ عثمان خليل!

وتعانقا طويلا وعمر فى غاية من الانفعال، ثم جلسا على المقعدين المتقابلين أمام المكتب ولسانه لا يتوقف عن كلمات الترحيب والتهنئة والتبريك، والآخر يبتسم وكأنه لا يجد ما يقوله. وحل صمت قصير كرد فعل فراحا يتبادلان النظر، وتموجت المخيلة بالذكريات . وتحركت فى الأعماق مشاعر غريبة منذرة بكل ظن. وارتفع مد حاملا دفعات من القلق والتوجس. وطالما طافت به لحظة اللقاء المرتقبة وطالما عمل لها ألف حساب ولكنها حلت رغم ذلك بغتة كمفاجأة غير ممكنة التوقع. ولم يقدر الزمن ونسى كل شىء فى العهد الأخير ومع ذلك فإن المدة لم تنقض بالتمام ولم يستنتج إلا الساعة أن ثلاثة أرباعها قد انقضى! وها هو يلقاه أبعد ما يكون عن الاستعداد النفسى لذلك. رجل خارج من السجن إلى الدنيا ورجل يتحفز للخروج من الدنيا إلى عالم مجهول.

ـ يا له من عمر طويل!

ابتسم عثمان، فقال عمر :

ـ لم تغب عنا فيه ساعة واحدة، وها هو وجهك مصمم على الحياة كعادتك!

فقال بصوت حلقى دسم :

ـ وأنت لم تكد تتغير فى الصورة ولكن صحتك ليست كما يجب!

سر للملاحظة الأخيرة وقال:

ـ بلى، مرضت، وعانيت أزمات غريبة، ولكن من فضلك لا تجعل مني موضوعا للحديث، أريد أن تتحدث وأن أسمع.

ودخل فراش بالكوكا والقهوة ثم قال عثمان:

ـ مضت أعوام وأعوام، اليوم بسنة فى قرفه والسنة بيوم فى تفاهتها ولكن لا تنتظر أن أتحدث عن حياة السجن.

ـ مفهوم. . آسف. . ولكن متى خرجت؟

ـ منذ أسبوعين.

ـ وكيف لم تحضر إلا اليوم؟

ـ سافرت من فورى إلى القرية وكنت مريضا بالإنفلونزا ولما شفيت رجعت إلى القاهرة.

لا فائدة من الهرب إلى الأحاديث الجانبية. وإحساسك بالذنب يزداد حدة.

ـ كم عذبنا أننا لم نستطع زيارتك. .

فقال عثمان بوجه لا ينبئ عن شىء:

ـ كان سيقبض على أى زائر من غير الأهل.

ـ وكم وددنا لو كان فى الإمكان أن نطمئن عليك.

ـ الحق أننا عوملنا معاملة سيئة جدا أول الأمر ولكنها تغيرت بطبيعة الحال بعد قيام الثورة.

فتقلص وجه عمر إعرابا عن أسفه، فاستطرد الآخر:

ـ ولكن ثبت لى أنه إذا قذف بنا إلى الجحيم فإننا حتما سنعتاد ونألف الزبانية!

وأذعن عمر لإحساسه بالذنب فاعترف قائلا:

ـ العدل كان يقضى بأن نذهب معك إلى السجن . .

فقال بسخرية :

ـ القانون هو الذى أدخلنى السجن لا العدل!

فتمتم عمر بخشوع :

ـ على أى حال فنحن مدينون لك بحريتنا وربما بحياتنا . .

ـ أليس ذلك ما كنت تفعله لو ألقى القبض عليك أنت وكنت أنا من الهاربين؟

فلم ينبس عمر بكلمة حياء وارتباكا واستطرد عثمان بمرارة :

ـ وها أنا فى الدنيا من جديد وفى منتصف الحلقة الخامسة .

فقال عمر معزبا :

ـ ما زلت شابا وأمامك حياة طويلة وعريضة . .

ـ وورائى تجربة أمر من اليأس . .

فقال عمر بحزن :

ـ قد عشناها خارج الأسوار ولكن يخيل إلى أننا لم نفعل شيئا ذا بال . .

فهتف محتجا :

ـ لا تقل ذلك ، لا تفقدنى البقية الباقية من العزاء .

تحركت مخاوفه مرة أخرى وشعر بأنه جثة منسية فوق سطح الأرض ، فقال :

ـ مارسنا عملا ، وتزوجنا ، وأنجبنا ، ولكن يخيل إلى أنه ليس لى ما أحصده إلا الهباء ، ولكن معذرة لا يحق لى أن أتكلم عن نفسى .

ـ ولكننا نصفان متكاملان!

الماضى المنقضى والحساب العسير. وقال بفخار فى بدروم بيت مصطفى المنياوى «خليتنا قبضة من حديد ولا يمكن أن تنكسر. ونحن نعمل للإنسانية جمعاء لا للوطن وحده.

ونحن نبشر بدولة البشرية، نحن نخلق بالثورة والعلم عالم الغد المسحور».

ولما أصابته القرعة قال: «أنا سعيد، مصطفى عصبى وأنت عريس، وغدا تلقى قنبلة على خنزير من المولعين بمص الدماء».

ـ كان التدبير محكما، ولولا رصاصة طائشة أصابت ساقك لما قبضوا عليك..

ـ أجل، وماذا فعلت أنت ومصطفى؟

ـ سهرنا حتى الصبح والحزن يقتلنا..

فضحك ضحكة قصيرة وسأل:

ـ ألم تخافا أن أعترف؟

ـ فكر مصطفى فى الهرب ودعانى إلى ذلك، وفكرنا فى الاختفاء، وذقنا أياما تعيسة ولكنك كنت فوق مستوى الإنسان وكنا وما زلنا لا شىء..

ويعتاد الإنسان الجحيم كما يعتاد التضحية بالغير! ومهما يكن من قذارة الفأر فإن منظره فى المصيدة يثير الرثاء.

وأشار عثمان إلى المساعدات التى تلقاها والداه ـ قبل وفاتهما ـ من عمر، ولكن عمر أبى أن يسمع بقية الإشارة وعند ذلك قال عثمان:

ـ لا أريد أن آسف على ما فات. فقد اخترت مصيرى بوعى كامل، والآن آن لك أن تحدثنى عن أخبار الدنيا؟

فقال عمر بدهاء وهو يرنو إلى النجاة من بعيد:

ـ ليكن المستقبل أهم ما يهمنا..

ـ المستقبل؟ . . أجل . . سأنفض الغبار على الليسانس . .
ـ وإليك مكتبى تحت أمرك . .
ـ عظيم، ولا اعتراض لأحد فى الجهات الرسمية على أن أعمل . .
ـ إذن فلتبدأ من اليوم . .
ـ شكرا . . شكرا . . ولكن حدثنى عن أخبار الدنيا؟

لا يريد أن يتزحزح . يا للغرابة كأنك لم ترتبط به يوما ما! وكأنك لم ترغب قط فى هذا اللقاء . لا شىء مشترك بينكما إلا تاريخًا ميتًا ولا يوحى إليك إلا بمشاعر الذنب والخوف وازدراء النفس . ولم يدر بعد بأن كتب الغيب حلت محل الاشتراكية فى مكتبتك . وها هو يعترضك كقدر وأنت تهرب من الأهل والدنيا .

وضاق عثمان بصمته فسأله مستدرجا :

ـ حدثنى عن أصحابنا؟
ـ أوه . . تفرقوا، لا أعرف منهم اليوم إلا مصطفى المنياوى . .
ـ وماذا فعلتم؟
ـ الحق أن السنوات التى تلت القبض عليكم اتسمت بالعنف والإرهاب فلم يكن بد من أن نركن إلى الصمت، ثم انشغل كل بعمله، وتقدم بنا العمر على نحو ما، ثم قامت الثورة وانهار العالم القديم . .

قبض عثمان على ذقنه العريضة بيده، وعكست عيناه المشعتان نظرة باردة لعله ينعى الأعوام الضائعة . ما أبغض هذا الموقف الذى أرق نومه مرات ككابوس . وقال عثمان :

ـ طالما ساءلت نفسى لماذا؟ أجل لماذا؟ وبدت لى الحياة خدعة سمجة، وعجبت للأقدار التى انهالت على رأسى، أقدام أناس تعساء من صميم الشعب الذى سجنت من أجله، وتساءلت لماذا؟

هل تعنى الحياة أن نستوصى بالجبن والعماء؟ ولكن ليس كذلك النمل ولا بقية الحشرات، ولا أطيل عليك فقد استرددت إيمانى . .

يا لسوء الحظ!

ـ استرددت إيمانى فوق الصخور وتحت أشعة الشمس، وأكدت لنفسى بأن العمر لم يضع هدرا . وأن ملايين الضحايا المجهولين منذ عهد القرد قد رفعوا الإنسان إلى مرتبة سامية!

أحنى عمر رأسه إعرابا عن الموافقة والاحترام! واستطرد عثمان بنبرة لم تخل من حنق :

ـ من الحمق التعرض بماض مسلول ما دام المستقبل ينهض راسخا بصورة أقوى ملايين المرات من جبن الجبناء .

فقبض على أداة نجاة وسط العاصفة الهوجاء قائلا :

ـ على أى حال فقد تقوض العالم القديم المرذول وقامت ثورة حقيقية فتحقق حلم من أحلامك . .

انظر إلى وجهه كيف يتجهم . وتتجمع فيه عاصفة مربدة . وها أنت تتجرع هزيمة فى ميدان لم يعد يهمك فى شىء . ألا يعلم بأنى لم يعد يهمنى شىء!

وقال عثمان بأسف :

ـ لو لم تسارعوا إلى الجحور لما فقدتم الميدان .

ـ لم تكن لدينا قوة ولا أتباع فى الشعب يعتد بهم، ولو وقعت المعجزة على أيدينا لهبت قارات للقضاء علينا . .

ـ المؤسف أن المرضى لا يفكرون إلا فى المرض . .

ـ وهل ترى من العقل أن يتجاهلوه؟

ـ ليس العقل ولكنه الجنون، ألم تدرك بعد كم أن العالم مدين للجنون؟!

فقال ملاطفا:

ـ على أى حال قد قامت الثورة وهى تشق طريقها بعقلية اشتراكية حقيقية.

فحدجه بنظرة متفحصة طويلة حتى قرأ فيها معانى لم تسره فقال:

ـ وهى التى لم تمس رءوس أموال أمثالى من الناس فقد فرضت ضريبة عادلة.

ثم بنبرة عصبية:

ـ صدقنى أننى لست عبداً لشىء، فليذهب كل شىء إلى الجحيم..

فابتسم عثمان وسأله:

ـ صارحنى يا عزيزى أما زلت مؤمنا كما كنت؟

فتفكر عمر مليا فوق حافة الهاوية، ثم قال:

ـ كذلك كنت قبل قيام الثورة، فلما أن قامت الثورة اطمأن بالى ثم أخذت أفقد الاهتمام بالسياسة وأولى وجهى وجهة أخرى..

قطب متسائلا:

ـ وجهة أخرى؟!

قال بحذر:

ـ يحلو لمصطفى أحيانا بأن يصفها بأنها حنين جارف إلى الماضى الفنى..

فتساءل بامتعاض:

ـ وهل من تعارض بين الفن والمبدأ؟!

فقال وهو يزداد ضيقا وحرجا:

ـ ليس الأمر بهذه البساطة . .

فقال بوجوم :

ـ لا أفهم سوى أنك لم تعد أنت . .

كما قالت زينب ووردة من قبل ! . . قال :

ـ أعترف بأننى لم أعد أستحق أن أكون موضع تفكيرك .

ثم بلهجة فيها شىء من المرح :

ـ المهم الآن هو أن تبدأ حياتك الجديدة لتعوض ما فات . .

فقال بلهجة ثقيلة :

ـ أخشى ألا أجد حقا ما يعوضنى عما فات .

ـ هاك مكتبى تحت أمرك ، وجميع ما يلزمك للبدء . .

ـ إنى عاجز عن الشكر .

ـ بل هو دون ما تستحق ، وسوف أظل ما حييت مدينًا لك بالحياة . .

ثم بلهجة تحررت كثيرا من الخوف والحرج :

ـ لاشك أنك فى شوق لرؤية زينب والأسرة ومصطفى فلنتعش الليلة فى البيت . .

١٦

وليمة العشاء حفلت بالأطعمة والأشربة والذكريات . واغرورقت عينا زينب وهى ترحب به وشدت على يده طويلا على حين عانقه مصطفى المنياوى عناقا حارا ، أما عليات فكان يراها لأول مرة . .

وجلست بثينة إلى جانبه على المائدة وأعلن بدهشة أنها صورة من شباب أمها. ولما قدمت فواتح الشهية قال:

ـ لن أبالغ فى صنف لأذوق جميع الأصناف..

والتفت نحو بثينة قائلا:

ـ قالوا لك إنى صديق قديم، وهذا بعض الحقيقة لا الحقيقة كلها، أنا صديق قديم خارج من السجن..

واعتبرتها بثينة نكتة فابتسمت فقال:

ـ صدقينى فأنا صديق قديم وسجين قديم.

وعند ذلك قالت زينب:

ـ إذن يجب أن تعلم أنك بطل سياسى لا مجرد سجين!

ورمقته بثينة باهتمام مشوب بدهشة فقال:

ـ بطل أو مجرم، هى من أسماء الأضداد..

وقال لها عمر:

ـ عثمان صديق قديم، وهو زميلى فى المكتب الآن، وله قصة طويلة سأقصها عليك فيما بعد، ولكنك تعرفين شيئا ولا شك عن المسجونين السياسيين..

فسألت بثينة عثمان:

ـ أسجنك الملك؟

فقال والسفرجى يضع فى طبقه شريحة من الديك وكمية من البازلاء:

ـ بل المجتمع كله..

ـ وماذا فعلت؟

لم يجب. فقال مصطفى ضاحكا:

ـ كان اشتراكيا قبل الأوان . .

ثم وهو يغمز بعينيه :

ـ وكان يهوى اللعب بالقنابل .

فاتسعت العينان الخضراوان ولكن زينب قالت لعثمان بلباقة لتحويل المجرى :

ـ بثينة شاعرة .

فنظر إلى عمر باسما وقال :

ـ الشعر وراثى فى هذه الأسرة!

فقال له مصطفى محذرا :

ـ لكن شعرها ترنيمات موجهة للذات الإلهية .

وهمَّ بتفجير سخرية ولكنه أمسك فى اللحظة المناسبة وقال بأدب :

ـ أرجو أن يسعدنى الحظ بالاستماع إلى بعض هذه الترنيمات . .

ونجح عمر فى إخفاء ضيقه . وتناول حمامة محشوة وقال لنفسه إنها لو أحسنت الطير لما أكلت . ولاحظ مجاملات المائدة المتبادلة بين بثينة وعثمان بارتياح . وإذا بالفتاة تسأل جارها :

ـ وكيف صبرت على حياة السجن؟

ـ صبرت لأنه لم يكن من الصبر بد . وعرفت بحسن السير والسلوك ، والظاهر أننا لا نسىء السلوك إلا فى المجتمع .

وضحك ثم استطرد :

ـ الواقع أن السجن لا يخلو من مزية ، فالسجناء يمارسون حياة لا طبقية فيها مما نحب أن يتحقق فى الحياة . .

ـ لكنى لم أفهم شيئا . .

ـ سوف تفهمين كلامى إذا أمكن أن أفهم شعرك .

ـ هل قرأت شعر بابا؟

ـ طبعا.

ـ وهل أعجبك؟

وقال عمر محتجا:

ـ كيف بالله تأكلان وأنتما لا تكفان عن الحديث؟!

ولكن عثمان أحب محادثتها، وقد سألها:

ـ هل ستدرسين الآداب فى الجامعة..؟

ـ العلوم.

ـ برافو، ولكن كيف وأنت شاعرة؟

فقالت زينب بفخار:

ـ إنها متفوقة فى العلوم.

وقالت بثينة:

ـ وبابا متحمس لدراسة العلم..

فرمق عثمان عمر بنظرة حائرة، ثم قال لبثينة:

ـ سوف تدركين يوما أنه الأمل المنشود.

ـ ولكنى لن أتخلى عن الشعر.

ـ وما البأس فى تلك الحال؟!

ـ وكم عاما قضيت فى السجن؟

ـ حوالى العشرين!

فرمته بنظرة ذاهلة فضحك قائلا:

ـ ومع ذلك فقد عرفت رجلا فى السجن لا يرغب فى مغادرته، وكلما قاربت مدته الانتهاء ارتكب جريمة خفيفة ليجددوا له المدة..

ـ تصرف غير معقول!

فقال بلهجة جادة:

ـ ما أكثر التصرفات غير المعقولة!

وقال عمر معاتبا:

ـ ألا تريدين له أن يأكل؟

وقدمت لهم القهوة فى حجرة الاستقبال. ولم ينقطع الحديث بين عثمان وبثينة. وحوالى العاشرة اقترح مصطفى أن يجلس ثلاثتهم بالشرفة. وانتقل النساء إلى حجرة الجلوس، وأراد عثمان أن يعرف ماذا صنع مصطفى بحياته فقص عليه هذا قصته بصراحة واستهانة وجرأة غير متوقعة. ولم يقنع بذلك ولكن قال:

ـ ها قد وقفت على أحوالنا فماذا يدور فى رأسك الكبير؟

وكان عثمان قد عاد ـ بعد اختفاء بثينة ـ إلى الفتور والتجهم فقال:

ـ علىّ أن أبدأ حياتى أولا كمحام.

ـ إنما أسأل عما يدور برأسك!

ـ وعلى أن أدرس ما حولى..

ـ من حقك هذا، غير أن موقفنا القديم لم يعد ضرورة حتمية..

فقال بغلظة متحدية:

ـ ولكنه ضرورة حتمية!

ـ أعنى أن الدولة الآن اشتراكية مخلصة وفى هذا الكفاية..

وظل عمر صامتا ينظر نحو النيل الذى يجرى عاكسا أضواء المصابيح تحت هلال مرشوق فى الأفق. وقال عثمان بمرارة:

ـ إذا كنت قد تغيرت فلا يعنى هذا أن الحقيقة يجب أن تتغير..

ـ لم نتغير ولكننا تطورنا..

ـ إلى الوراء

ـ الوطن تطور إلى الأمام بلا شك . .

ـ ربما ولكنكما تطورتما إلى الوراء .

وظل عمر ينظر إلى الهلال أما مصطفى فسأله بمرح :

ـ ألم يقنعك ما ضحيت به من عمر؟

فقال بحنق :

ـ الحقيقة لا تقنع .

ـ يا عزيزى لست المسئول الوحيد عنها . .

ـ الإنسان ، إما أن يكون الإنسانية جمعاء ، وإما أن يكون لا شىء .

فقال مصطفى ضاحكا :

ـ إننى لم أستطع أن أكون مصطفى فحسب فكيف يمكن أن أكون الإنسانية جمعاء؟!

ـ يا لفداحة الفشل! . . لا أصدق ما حل بكما من تدهور . .

لم يستطع مصطفى أن يتجاوب معه فى جديته ولكنه أشار إلى عمر وقال :

ـ دعك من عمر فهو يعانى أزمة حادة . . لقد كره العمل والنجاح والأسرة . .

نظر عثمان إلى عمر متسائلا ، ولكنه لم يحول وجهه عن النيل ، فقال مصطفى :

ـ كأنما يبحث عن نفسه . .

فقطب عثمان كالمنزعج وقال :

ـ أليس هو الذى أضاعها؟

ثم خاطب نفسه متأوها :

ـ هل انتهى الحال إلى التأملات الفلسفية!

فقال مصطفى وكان يغالب الاستسلام للمرح طوال الوقت :

ـ طالما اعتقدت أنه يريد أن يبعث جانبه الفنى المكبوت ، وحاول ذلك وما زال ، ولكنه يحلم أحيانا بنشوة غريبة . .

ـ زدنى فهما . .

فتحول عمر نحوهما قائلا :

ـ أرح نفسك واعتبره مرضا . .

فحدجه بنظرة ثاقبة وتمتم :

ـ لعله مرض حقا ، إذ إنك ضيعت جانبك الصحيح المعافى . .

فقال مصطفى :

ـ أو أنه يبحث عن معنى لوجوده .

ـ عندما نعى مسئوليتنا حيال الملايين فإننا لا نجد معنى للبحث عن معنى ذواتنا !

فتساءل عمر مضجرا :

ـ ترى هل تموت الأسئلة إذا قامت دولة الملايين ؟

ـ ولكنها لم تقم بعد !

ونقل عينيه بينهما ثم قال :

ـ والعلماء يبحثون عن سر الحياة والموت بالعلم لا بالمرض !

ـ وإذا لم أكن من العلماء ؟

ـ فلا أقل من ألا تثير فى وجوه العاملين غبار النواح والولولة . .

فقال مصطفى :

ـ إنك تقذف بألفاظ مدببة على حين يعانى صديقنا ألما حقيقيا . .

ـ أنا آسف وأخشى أن أظل آسفا إلى الأبد . .

وتساءل عمر :

ـ ولكن ألا يسعفنا القلب إن فاتنا أن نكون من العلماء؟

ـ القلب مضخة تعمل بواسطة الشرايين والأوردة، ومن الخرافة أن نتصوره وسيلة إلى الحقيقة، والحق أنى أقترب من فهمك، فأنت تتطلع إلى نشوة، و ربما إلى ما يسمى بالحقيقة المطلقة، ولكنك لا تملك وسيلة ناجحة للبحث فتلوذ بالقلب كصخرة نجاة أخيرة، ولكنه مجرد صخرة، وسوف تتقهقر بك إلى ما وراء التاريخ، وبذلك يضيع عمرك هدرا، حتى عمرى الذى ضاع وراء الأسوار لم يضع هدراً، ولكن عمرك أنت سيضيع هدرا، ولن تبلغ أى حقيقة جديرة بهذا الاسم إلا بالعقل والعلم والعمل.

لم يشهد الفجر فى الصحراء. لم يشعر بالنشوة التى تحقق اليقين بلا حاجة إلى دليل، لم تطرح الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب.

وقال مصطفى:

ـ إنى مؤمن بالعلم والعقل ولكن بين يدى الآن قصيدة كتبها عمر فى الفترة الأخيرة قبل أن ينبذ الشعر نهائيا، وهى تقطع بثورته على العقل..

فقال عثمان وهو يتمالك أعصابه:

ـ يسرنى أن أسمعها..

همّ عمر بالاعتراض، ولكن مصطفى بسط ورقة استخرجها من جيبه وراح يقرأ:

لأننى لم ألعب فى الهواء

ولا سكنت فى خط الاستواء

لم يستهونى شىء إلا الأرق

وشجرة لا تنثنى للعاصفة

وبناء لا تطرف له عين

وساد صمت ثقيل. ثم قال عثمان:

ـ لم أفهم شيئا . .

وقال عمر:

ـ وأنا لم أقل شعرا. كنت أهلوس تحت تأثير حال مرضية.

فقال مصطفى:

ـ ولكن الفن الحديث عموما يتنفس فى هذه الثورة.

فقال عثمان بازدراء:

ـ إنها أنين نظام يحتضر . .

فقال مصطفى:

ـ ربما كان هذا حقا على المستوى الحضارى، ولكننى أقول كفنان قديم إنها أزمة فنية أيضا، أزمة فنان يبحث عن شكل جديد بعد أن أعياه المضمون . .

ـ ولم أعياه المضمون؟

ـ لأنه كلما عثر على موضوع وجده مبتذلا من كثرة الاستعمال . .

ـ ولكن الفنان يضفى من نفسه على موضوعه فيصير جديدا فى هذه الحدود على الأقل.

ـ لم يعد هذا مقنعا فى عصر الثورات الجذرية، عصر العلم، وقد تبوأ العلم العرش فوجد الفنان نفسه ضمن الحاشية المنبوذة الجاهلة، وكم ود أن يقتحم الحقائق الكبرى ولكن أعياه العجز والجهل، وحز فى نفسه فقدان عرشه فانقلب «غاضبا» أو «عدوا للرواية» أو «لا معقولا»، ولما استحوذ العلماء على الإعجاب بمعادلاتهم غير المفهومة نزع الفنانون المنهارون إلى سرقة الإعجاب باستحداث آثار شاذة مبهمة غريبة، وأنت إن لم تستطع أن تستلفت

أنظار الناس بالتفكير العميق الطويل فقد تستطيعه بأن تجرى فى ميدان الأوبرا عاريا . .

ولأول مرة يضحك عثمان عاليا ، واستطرد مصطفى :

ـ ولذلك اخترت أبسط الطرق وأصدقها وهو أن أكون مسليا . .

وقال عمر لنفسه : لماذا أتعب نفسى فى مناقشة أمور لا تهمنى؟

١٧

خرس الفجر . على ضفاف النيل أو فى الشرفة أو فى الصحراء خرس الفجر . وليس من شاهد على أنه تكلم ذات مرة إلا ذاكرة محطمة . وإدامة النظر والتطلع إلى أعلى واحتراق القلب لا تجدى شيئا ، والجوانح تنطوى على لوعة مشتعلة صراخها يصك السماوات بلا أمل . وسخريات الشعر وشعر مارجريت الذهبى وعينا وردة الرماديتان وطيف زينب الخارج من الكنيسة أشباح شاحبة تهيم فى رأس أجوف . وضحكات مصطفى تنعى أى أمل . أما صخب عثمان فنذر نبى يبشر بالعدم . وخاطبت المقاعد والجدران والنجوم والظلام ، وخاصمت الخلاء ، وغازلت شيئا لم يوجد بعد ، حتى أراحنى أمل قاتم فوعدنى بالخراب الشامل . وقد هان كل شيء ، وتهتكت القوانين التى تحكم الكائنات ، وتعذر التنبؤ بطلوع الشمس . كيف أقبل بعد ذلك أن أنظر إلى ملف قضية أو أن أناقش مشكلة تتعلق بميزانية البيت! وقد قلت لحجرتى المغلقة :

ـ أى خطأ كانت تلك الهدنة التى أرجعتنى إلى البيت؟

وقلت للقطة وهى تتمسح بساقى :

ـ سمعا وطاعة، سأرحل عن المأوى المكتظ بالعواطف المتطفلة المعوقة . .

ولم يبق من تسليات إلا أن أرقص فوق قمة الهرم أو أقفز من فوق أعلى جسر إلى قاع النيل، أو أقتحم الهيلتون عاريا، ويقينا أن روما لم يحرقها نيرون ولكن ضرمتها الأشواق اليائسة. كذلك تزلزل الأرض وتتفجر البراكين.

وقالت وردة فى التليفون :

ـ ترى هل نسيت صوتى؟

فقال فى قتور :

ـ أهلا وردة . .

ـ ألا تزورنا ولو فى السنة مرة؟

ـ كلا ولكنى تحت أمرك إن كنت فى حاجة إلى شىء . .

ـ أنا أحدثك بلغة القلب . .

فقال ممتعضا :

ـ القلب! . . إنه مضخة . .

وفى لحظة ألم حاد لعن العلم المستعصى على أمثاله من البشر. وكان يتخفف من ألمه بالاستسلام لجنون السرعة وهو يندفع بسيارته فى أطراف القاهرة. وتعددت رحلاته بلا هدف إلى الفيوم أو القناطر أو طنطا أو الإسكندرية. ويندفع بجنون حتى يثير الفزع والسخط. وكثيرا ما يغادر القاهرة صباحا ثم يرجع إليها صباح اليوم الثانى دون نوم. وقد يدخل دكان بقال ليسكر أو يجلس فى التريانون لينام أو يشيع جنازة لا يعرفها ولا تعرفه، أو يغلبه النوم عقب الفجر فينام فى السيارة أو على شاطئ النيل حتى الصباح، وذهب مرة إلى مكتبه، وجد عثمان منهمكا فى العمل بطاقة مذهلة، وسأله الرجل :

ـ أين كنت فى الأيام الماضية؟

فرمقه باستهانة وقال :

ـ فى أماكن لا حصر لها . .

ـ أنت مرهق بلا ريب ، ترى ماذا يدور فى رأسك؟

وكان الألم قد حرره من الحرج والحياء والخوف ، حتى خوفه من عثمان قد اندثر ، فقال :

ـ أفكر فى تفجير الذرة فإن تعذر ذلك ففى القتل فإن تعذر ذلك ففى الانتحار!

فضحك عثمان ثم قال معترضا :

ـ ولكن مكتبك . . .

ـ لقد عاشرتنى مدة تكفى لأن تفهم . .

ـ حدثنى عما تنوى أن تفعله . .

فقال بتصميم :

ـ آن الأوان لأن أفعل ما لم أفعله فى حياتى وهو ألا أفعل شيئا .

ـ لاشك فى أنك تمزح . .

ـ لم أكن جادا كما أكون اليوم . .

فتراجع عثمان أمام تجهمه الصارم وقال برقة :

ـ ألا تفكر فى استشارة طبيب؟

ـ لا أستشير أحدا فيما يجهله . .

وزحف صمت مرهق حتى خرقه عمر متسائلا :

ـ وأنت هل تقصر جهودك على المحاماة؟

ـ أجل ، ولكنى لا أكف عن التفكير . .

ـ هل تنقلب مرة أخرى خطرا يهدد الأمن؟

فقال باسما :

ـ هذا شرف لا أستطيع أن أدعيه بعد . .

الحق أن ما يكتنفه من طنين يمنعه من حسن الاستماع إلى الصمت . لابد من الذهاب . وهو بحال من التوتر يسهل معها الجهر بأى سر . لذلك قال لزينب إنه سيوكلها عن نفسه فى التصرف فيما يملك وإنه سيختفى عن مكتبه للعاملين فيه . وأظلمت عيناها كما تظلمان تحت الضربات التى تتلقاها واحدة بعد أخرى . وقال لها إنه صمم على ألا يشغل نفسه بشىء وأن يزيح الدنيا عن عاتقه . ولها أن تعتبر الحال مرضا واضحا أو غامضا ولكنه على أى حال لا يجد سبيلا أفضل من الخلو إلى نفسه بعيدا عن الناس . وليس فى الموضوع امرأة ، يجب أن تصدقه ، ولا لهو أو عبث ، ولكنها أزمة طاحنة بلغت ذروتها ولن تنفرج إن كان مقدرا لها أن تنفرج إلا بالطريقة التى اختارها .

وتوسلت زينب قائلة :

ـ ولقد تركناك وشأنك ، إذا كنت كرهت العمل فاهجره ، وإذا كان الحنين يراودك على الفن فاستجب له ، ولكن لا تهجرنا إكراما لأبنائك . .

وخزه الكلام ولكنه قال إنه لا فائدة ترجى من ثنيه عن عزمه الذى يسيره كالقضاء ، فقالت :

ـ لقد حدثنى مصطفى طويلا ، وآلمنى أنك صارحته بما تخفيه عنى ، ولكنى انتحلت لك بعض العذر أمام نفسى لغموض الحال التى تعانيها ، ولا تؤاخذنى على عدم فهمى لما تبحث عنه من معنى لوجودك أو للحياة ، ولكنى لا أجد علاقة بين ذلك وبين انقلابك على عملك ومستقبلك وأسرتك ، لماذا لا تعود إلى استشارة الطبيب؟

ـ لذلك لم أصارحك بكل شيء.

ـ ولكن المرض ليس بعيب . .

ـ إنك تظنين بي الجنون.

فبكت حتى اضطرب جذعها ، ولكنه لم يلن وقال بتصميم :

ـ الحل الذى اخترت فيه الخير لنا جميعا.

فقالت بضراعة :

ـ اذهب إلى أى مكان حتى تسترد راحتك النفسية ثم عد إلينا . .

ـ ربما حدث ذلك ولكن من الأفضل أن نوطن النفس على ذهاب لا رجعة منه . .

فاسترسلت فى البكاء حتى قال :

ـ إن لم أفعل ذلك فإننى سأجن أو أنتحر . .

ووقفت وهى تقول :

ـ بثينة ليست طفلة ويجب أن تسمع رأيها.

ولكنه هتف بها :

ـ لا تضاعفى من عذابى . .

ومن اليسير أن يخمن ما سيقال عن مرضه، عن عقله، ولكن لا أهمية لذلك ألبتة. ولعله حق. إنه يخاطب الجماد والحيوان ويناقش الكائنات المنقرضة. ويرى أحيانا وهو ينطلق بسيارته الأرض المتماسكة وهى تتفتت ثم تتحول إلى شبكة مترامية من الذرات حتى يضطر إلى التوقف وهو يرجف. وأحيانا وهو يرنو إلى شجرة أو النيل تتحقق للمنظور شخصية حية، وتتخذ هيئته ملامح خفية لا يعوزها الشعور أو الإدراك، ويخيل إليه أنه يرامقه فى حذر، وأنه يضع وجوده بإزاء وجوده هو على مستوى الند للند ومفاخرا فى ذات الوقت بعراقته فى

الوجـود وخلوده النسبى فى الزمن. علام يدل ذلك؟ وعلام يدل نبـذه للعمل والأسرة والأصدقاء؟ وعليه فيجب أن يكون حذرا وإلا وجد نفسه مسوقا إلى مستشفى الأمراض العقلية.

وجاء مصطفى وعثمان للاجتماع به. وأدرك أنهما دعيا إلى ذلك. ولم تنفع ضحكات مصطفى فى التخفيف من توتر الجو. ولم يكن يتكلم لدى استقبالهما. وجيء بالويسكى إلى الشرفة فشرب كأسا تحية للقادمين. وتبادلوا نظرات طويلة وشت بما تخفيه من إشفاق. وظهرت زينب دقيقة واحدة لتحية الرجلين وقالت وهى تهم بالانصراف:

ـ كنا أسعد أسرة، ولم يكن مثله فى الرجال أحد، ثم انهار كل شيء..

وأزهق تصريحها روح التردد فلم يبق بد من الانقضاض على الموضوع. وتساءل مصطفى:

ـ هل حق ما سمعنا؟

ولم يجب مكتفيا بإشارة من وجهه المصمم..

ـ إذن فأنت ذاهب!

أجاب بصراحة كنصل مرهف:

ـ أجل.

ـ إلى أين؟

ـ مكان ما..

ـ ولكن أين؟

ولم يجب. المكان رغم لا نهائيته سجن. ومصطفى أحمق إذ يستعمل لغة لا معنى لها.

ـ إذن جاء دورنا لتلقى بنا فى صندوق الزبالة.

فقال عابسا:

ـ أمس بكت بثينة ولكنها لم تسمع خيرا من هذا الجواب.

فقال مصطفى فى جزع:

ـ أهذا هو آخر عهدنا بك؟

ـ هو آخر عهدى بكل شيء.

ـ سوف أبكى بجماع روحى وجسدى.

ـ وأنا كابدت ما هو أشق من البكاء.

فتساءل مصطفى بحرارة:

ـ لأية غاية؟

فقال بمرارة:

ـ لأنطح الصخر.

فقال عثمان:

ـ لا أفهم.

ولكن مصطفى واصل حديثه قائلا:

ـ ليكن ما تشاء ولكن فلتبق بيننا..

ـ يجب أن أذهب.

فقال عثمان وهو لا يحول عنه عينيه:

ـ ألا ترى أن تستشير الطبيب؟

فأجاب بحدة:

ـ لست فى حاجة إلى إنسان..

ـ ولكنك بنيان قائم ولا يجوز أن يتهدم للاشيء.

ـ لست شيئا فى الواقع..

ـ لا يستطيع الإنسان أن يفكر وهو بين الناس؟

ـ لن أفكر ألبتة .

ـ ماذا ستفعل إذن؟

فقال بضيق :

ـ لا سبيل للتفاهم فيما بيننا .

ـ لكننى على ثقة من أنك تدفع بنفسك إلى الهلاك .

ـ أنت الذى تدفع نفسك إلى الهلاك .

ـ إذا كان لابد من الهلاك فمن الأفضل أن ننضم إلى . . .

فقال ملوحا فى قرف :

ـ لن أنظر إلى الوراء .

ـ إنك تجرى فى الحقيقة وراء لا شىء . .

نشوة الفجر شىء أو لا شىء؟ وهل تكمن حقيقة كل شىء فى اللاشىء؟ ومتى ينتهى العذاب؟!

واستطرد عثمان قائلا :

ـ تصور أن يقتدى بك العقلاء فى هذه الدنيا!

ـ فليبق العقلاء للدنيا .

ـ لكنك واحد منهم .

فمسح على رأسه ثم كور قبضته ورمى بها إلى الأرض بازدراء قائلا :

ـ هاك عقلى تحت قدميك .

فتساءل عثمان محزونا :

ـ ما جدوى هذه المناقشة؟

ـ هى عقيمة ولا جدوى منها، وغدا لن تقع علىّ عين . .

وقال مصطفى متأوها :

ـ لا أصدق كلمة واحدة مما يقال .

فقال وهو يخفى عينيه فى الأرض :

ـ من الخير أن تنسيانى كأن لم أكن .

فقال مصطفى :

ـ ولكنه فوق الاحتمال .

وتصلب وجه عثمان فى حزن غاضب . وأسدل عمر على وجهه ستارا أصفر من اللامبالاة . وتحول شخصاهما فى نظره إلى مجموعتين من الذرات فامحت ذواتاهما . ومن صراعه الباطنى أدرك أن حبهما مازال عالقا بفؤاده كأسرته : ذلك الصراع الذى يحمل أعصابه ما لا تحتمل من ضغط وتمزق . وتاقت نفسه إلى لحظة الانتصار المأمولة ، لحظة التحرر الكامل .

١٨

عندما يظفر قلبك بضالته سيجد نفسه خارج أسوار الزمان والمكان . ولكنك ما زلت تشقى باللوعة فى البيت الصغير ككوخ تنبسط من حولك الأرض المعشوشبة ، وتحيط بها على مدى السور أشجار السرو الرفيعة المقام . متى اليوم الذى يغيب عنك السرو وما يحدق به؟ يوم تسكت أشجان الليل المستقطرة من هسيس النبات وزفرات الصراصير ونقيق الضفادع . يوم لا ترهقك ذكرى ماضية ويستأثر بك اللاشىء . وتتلاشى أصداء الترانيم الهندية والتأوهات الفارسية فتستقبل شعاع النشوة الوردى بلا وسيط . نشوة الفجر العصماء العصية لتشدك بقوة المجهول إلى قبة السماء . هنالك لن يعرف قلبك النوم ولا حواسك الصحو .

وقفت بثينة رشيقة كشجرة السرو وأجالت عينيها الخضراوين بين الحديقة والحقول المترامية وراء الأسوار والترعة الجارية بين صفين من أشجار السنط وسألته فى عتاب :

ـ أمن أجل هذا؟!

ضعفت أمام طلعتها فمسحت برفق على موجات شعرها وغمغمت :

ـ بل من أجل اللاشىء .

ـ ألا تخاف الوحشة فى الخلاء؟

فهمست فى أذنها :

ـ أرهقتنى الوحشة فى الزحام . .

وتباعدت خطوة وهى تقول :

ـ أمس عثمان قال . . .

فقاطعها برفق :

ـ ألم تفطنى يا بنيتى بعد إلى أننى أصم؟!

فغادرت الحديقة من الباب الخشبى القصير المغروس فى سور اللبلاب والنرجس واختفت عن الأنظار . وتنهدت فى إعياء وفتحت عينى فى الظلام . ماذا يعنى هذا الحلم إلا أننى لم أبرأ بعد من نداء الحياة؟ وكيف أفكر فيك طيلة يقظتى ثم تعبث بمنامى الأهواء؟

* * *

وعانقك مصطفى بحرارة ومرح ثم نظر فى عينيك نظرة حادة وحزينة . ورأيت مكان صلعته شعرا أسود غزيرا مسترسلا إلى الوراء فلم تملك أن تشير إليه قائلا :

ـ مبارك عليك شعرك ولكن ماذا فعلت؟

فقال بجدية غير معهودة فيه :

ـ تلوت سورة الرحمن عند السحر .

فسألته بدهشة :

ـ ومتى عرفت الطريق إلى الرحمن؟ !

ـ منذ اعتزلت أنت العالم فى هذا المكان .

ـ ولم جئت؟

ـ لأقول لك إن زينب تعمل بقوة عشرة من الرجال .

ـ لها الله .

وألقى على البيت والحديقة والحقول نظرة ثم قال :

ـ ما أجدر هذا البيت بأن يكون مهد غرام أو مثوى فنان!

فجفلت قائلا :

ـ ها أنت تعود إلى الهزل .

فتأوه قائلا :

ـ لم يبق لنا إلا الهزل نحن بنو العصر الحجرى ، ولكنك بدل أن تهزل جننت بحب اليأس . .

فتراجعت وأنا أقول :

ـ ألم تدرك أننى ميت الحواس؟

فهز منكبيه استهانة وتسلق شجرة سرو حتى بدا أعلى من البدر الصاعد فوق الأفق ، وراح يحرك يده بجرس ذى رنين شديد حتى زحفت من الحشرات أنواع شتى ومضت ترقص حول الشجرة فى ضوء القمر . والتمعت صلعته تحت ضوء القمر .

وتنهدت فى إعياء وفتحت عينى فى الظلام . ماذا يعنى الحلم إلا أننى

لم أبرأ بعد من نداء الحياة: وكيف أفكر فيك طيلة يقظتى ثم تعبث بمنامى الأهواء؟!

* * *

وأمس جلت بأنحاء الحديقة مرددا شعر المجنون. وعندما بلغت السور الشمالى الذى ترى وراءه الترعة هزنى صوت حلقى وهو يصيح:

ـ أين الباب يا رجل؟

عثمان يعتلى دراجة بخارية مزركشة العجلة والمقود بالأعلام الصغيرة على طريقة أهل البلد فى الأعياد. وقلت له دون مجاملة:

ـ لا تدخل.

فهتف:

ـ ألم تدر بالمعجزة؟.. لقد عبرت سطح الترعة بالدراجة.

ـ لا أؤمن بالمعجزات!

فضحك عاليا وهو يقول:

ـ لكننا فى عصر المعجزات..

تراجعت خطوة وأنا أسأله:

ـ ماذا تريد؟

فقال بجدية وجلال:

ـ جئتك موفدا من الأسرة.

ـ لا أسرة لى.

ـ ألم تدر بالمعجزة، لقد ظهر لأسرتك فروع جديدة فى القارات الخمس أفلا تود أن ترجع إلى ذلك المزيج العجيب من البلاتين والفحم؟!

فقلت متحديا:

ـ ألم تدر بأن أسرتنا الحقيقية هى اللاشىء؟!

فقال مهددا :

ـ سأطاردك بفرقة كاملة من الكلاب المدربة .

وقعقع أزيز الدراجة وارتفع نباح الكلاب فتنهدت فى إعياء وفتحت عينى فى الظلام. ماذا يعنى هذا الحلم إلا أننى لم أبرأ بعد؟ وكيف أفكر فيك طيلة يقظتى ثم تعبث . .

* * *

وسهرت الليل كله فى الحديقة. ولم يكن معى فى الظلام شىء، والنجوم تومض فى القبة . وساءلتها عن أشواقى. وساءلتها متى يتحقق الحلم المنشود؟ وصرخت حتى اضطربت لصراخى خلايا السرو. وعاتبت كل شىء ولا شىء. ورنوت إلى نجم متألق بين النجوم .

ـ أريد أن أرى .

فهمس :

ـ انظر .

فنظرت فرأيت فراغا لا شىء فيه. ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه فهمس :

ـ انظر .

فانحسرت هالة من الظلام عن رجل عار وحشى الملامح مسدل الشعر حتى المنكبين، يقبض بيمناه على عصا من الحجر الصلد ويتحفز للقتال. . ووثب نحوه وحش لم تره عينى من قبل كأنه تمساح ولكنه يقوم على أربع أرجل طوال وله وجه ثور. ودارت بينهما معركة دامية انتهت بسقوط الوحش وتراجع الرجل مترنحا والدماء النازفة تخضب وجهه وصدره وتسيل فوق ذراعيه، ولكنه رغم آلامه ابتسم .

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم، فهمس :

ـ انظر .

فانجابت الظلمة عن فسحة من المكان تكتنفها غابة وينهض فى خلفيتها جبل، وانحدر من الجبل قوم عرايا مدججون بالأحجار فتصدى لهم آخرون من الغابة لا يقلون عنهم وحشية أو رغبة فى القتال. ودارت معركة عنيفة وعلا الصراخ وسالت الدماء. حتى الوحوش الكاسرة ولت لائذة بأعالى الشجر والقنوات وقمة الجبل. وانهزم أهل الغابة فسقط منهم من سقط، وأسر من أسر وهلل أهل الجبل.

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم، فهمس:

ـ انظر .

فرأيت جموعا تعكف على الأرض تحرثها وتزرعها، وقوافل تسير محملة بالبضائع، طائفة تمتطى الخيل مدججة بالسلاح متأهبة للقتال.

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم، فهمس:

ـ انظر .

فرأيت جبهة عالية يرتسم التفكير فى أخاديدها وصاحبها منكب على أوراق يخط فوق صفحاتها أرقام لا نهاية لها.

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم، فهمس:

ـ انظر .

ولم أر شيئا أول الأمر. ولكنى شعرت بوثبة تبشر بالنصر وشاع فى صدرى شعور غامر بالسعادة. وتذكرت الإحساس الباهر الذى سبق الرؤيا ساعة الفجر بالصحراء. ولم أشك فى أن النشوة آتية بموسيقاها وأن العريس سيبزغ وجهه. وانجابت الظلمة عن منظر آخذ فى الوضوح رويدا والتوكد، وخفق قلبى كما لم يخفق من قبل. وتمخض عن باقة، هيئة باقة ورد، غير أن وجوها آدمية حلت محل ورودها. وما لبثت أن تبينت فيها وجوه زينب وبثينة وسمير وجميلة وعثمان ومصطفى ووردة

ذهلت من الدهشة وحملقت فيها بإنكار. وباخ حماسى مرة واحدة وتجرعت غصص الخيبة. ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم أين وجهه؟ أين وجهه؟ ولكن المنظر تشبث بكينونته. وازداد مع الوقت دقة ووضوحا. وتبادلت أشخاصه الألاعيب. تبدت زينب برأس وردة ووردة برأس زينب. ولبس عثمان صلعة مصطفى ونظر مصطفى إلىَّ بعينى عثمان. وإذا بسمير يثبت إلى الأرض متخذا من رأس عثمان رأسا له ثم يحبو نحوى. وفزعت فعدوت والكائن المركب من سمير وعثمان يتبعنى. وكلما زدت من سرعتى زاد هو من سرعته وإصراره. وقفزت من فوق السور الأخضر فوثب الآخر من فوقه كجرادة. وركضت بحذاء الترعة والآخر فى أثرى كثور عنيد. وعدوت، وعدوت حتى سرى الإنهاك فى عضلاتى وانبهرت أنفاسى وخارت قواى ودار رأسى فهويت إلى الأرض. انطرحت على وجهى فوق عشب ندى وقدما الآخر تقتربان منى فى إصرار وكأنهما تزدادان قوة. عبث الشيطان بالحلم. وبدلا من النشوة حلت اللعنة واستحالت الجنة ملعبا للمهرجين وتخليت عن فكرة المقاومة واستسلمت للأرض المعشوشبة. ورفعت رأسى قليلا لأنظر فيما حولى. سمعت صفصافة تترنم ببيت من الشعر. واقتربت منى بقرة قائلة إنها سوف تتوقف عن در اللبن لتتعلم الكيمياء، وزحفت حية رقطاء ثم بصقت أنيابها السامة وراحت ترقص فى مرح. وانتصب الثعلب حارسا بين الدجاج. واجتمعت جوقة من الخنافس وغنت أغنية ملائكية. أما العقرب فتصدت لى فى لباس ممرضة.

وتنهدت فى إعياء وفتحت عينى فى الظلام. ماذا يعنى هذا الحلم إلا أننى كنت أفكر فيك طيلة يقظتى ثم..

١٩

استلقيت على ظهرى فوق الحشائش رانيا إلى الأشجار الراقصة بملاطفات النسيم فى الظلام. أنتظر وإن طال الانتظار. وإذا بأقدام تقترب وصوت يهمس:

ـ مساء الخير يا عمر.

وانتصب شبح إلى جانبى. ما أكثر الأحلام! ولكننى لا أرى شيئا. وقال:

ـ كدت أيأس من العثور عليك، كيف ترقد هكذا، ألا تخاف الرطوبة؟

وجلس إلى جانبى فوق الحشائش ومد يده ولكنى تجاهلته فقال:

ـ أنسيت صوتى؟ ألم تعرفنى بعد؟

قلت متأوها:

ـ متى يكف الشيطان عنى؟!

ـ ماذا قلت يا عمر؟ بالله حدثنى فأنا فى غاية من الضيق.

ـ من أنت؟

ـ يا عجبا!.. أنا عثمان خليل..

ـ وماذا تريد؟

ـ أنا عثمان! لقد وقع المحظور وأنا مطارد..

تحسست جسمه بيدى وقلت:

ـ ليس هذا بجسم سمير فماذا تعنى هذه المرة؟

ـ سمير! . . إنك تخيفنى . .

ـ ولكنى لن أخاف ولن أعدو كالمجنون . .

فلمس ذراعى وقال :

ـ بالله حدثنى كصديق ، لا تدفع بى إلى اليأس منك .

ـ وماذا يهم؟

ـ أصغ إلى يا عمر ، إنى فى موقف خطير ، إنهم يبحثون عنى فى كل مكان وإذا ألقوا القبض علىّ هلكت . .

ـ إذن فأنت الهارب هذه المرة . .

ـ سأختبئ عندك حتى أتمكن من الهرب .

فتساءلت فى حزن :

ـ كيف جاء بك الشيطان؟

فأجاب بلهفة :

ـ كنا نعرف مكانك من أول يوم ، وليس ذلك بالمطلب العسير على صحفى مدرب كمصطفى ، وكثيرا ما حام مصطفى حول مسكنك وأوصى بك الفلاحين الذين يجيئونك بالطعام ، ولكننا لم نرد أن نزعجك . .

فهتفت متأوها :

ـ هم الذين حالوا بينى وبين وجهه .

ـ بل لم نزعجك مرة واحدة طوال العام ونصف العام . .

ـ لن أبالى حتى إذا وضعت رأسك مكان رأس سمير!

فقال بحسرة :

ـ ماذا أصابك؟ . . لا . . لا ، لن أصدق أنك لم تعرفنى بعد . .

ـ صدق أو لا تصدق .

ـ أصغ إلىّ يا عمر ، سأصارحك بحقيقة مذهلة ، لقد تزوجت من بثينة !

ـ فليعبث الشيطان ما شاء له العبث .

فقال وهو يدنى وجهه من وجهى :

ـ رغم فارق السن تزوجنا ، هو الحب كما تعلم ، وفى بطنها الآن ينبض جنين هو ابنى وحفيدك !

ـ كما كنت ابنى وعدوى !

ـ أما توقظك الأخبار العجيبة ؟

ـ كما لفظت الحية أنيابها السامة ورقصت . .

ـ يا للخسارة !

ـ هذا ما أردده دائما وما من مجيب . .

فربت صدرى برفق وقال :

ـ عد إلى وعيك ، إنهم فى أشد الحاجة إليك ، لقد هربت فى اللحظة المناسبة ولكنهم يجدون فى البحث عنى ، ولقد فتشوا مكتبك وأخشى أن يسيئوا بك الظن ، عد لتعلن براءتك وترعى أسرتك ، بثينة تنتظر وليدا ، ولن ترانى أبدا . .

ـ وأنا لم أره . .

ـ ألا تريد أن تفهم ؟

ـ أموت كل يوم عشرات المرات كى أفهم ولكننى لا أفهم .

ـ ألم تفهم أننى زوج ابنتك وأنه مقضى علىّ بالاختفاء أو الموت ؟

ـ اجر حتى تسقط إعياء وسوف ترى الخنافس وهى تغنى . .

ـ يا للفظاعة !

ـ يا للفظاعة !

فهزنى بشىء من الشدة وقال بغضب :
ـ اصح لا وقت للهذيان، يجب أن أفهمك كل شىء قبل أن أذهب .
ـ اذهب، لا تكدر صفو أحلامى .
ـ يا للتعاسة! ماذا فعلت بنفسك؟
ـ سوف ييأس الشيطان منى .
ـ اصح، أسـرتك فى خطر، إذا اتجه الشك إليك فسيتعرضون للبهدلة، أنا لا أخاف على نفسى فقد نذرتها للهلاك، ولكن يجب أن تعود إليهم . .
ـ عد إلى الجحيم فهو مقرك .
وهزه مرة أخرى بحنق قائلا :
ـ يجب أن أهرب ويجب أن تعود .
ـ ابق إذا شئت لترى بعينيك انتصارى .
فهز رأسه فى أسف وقال :
ـ يا لك من أحمق! بددت مجدك فى البحث عن شىء غير موجود .
ـ متى تصدق أنت أنك غير موجود؟!
نهض الرجل قائما وهو يقول :
ـ أشهد أننى يئست منك رغم أن اليأس ليس فى قاموسى .
ـ ها قد يئس الشيطان . .
ابتعد الشبح فى الظلام وهو يقول بحزن :
ـ الوداع يا أخا الجهاد القديم .
عاد السكون إلى الليل . ولكن ذلك لم يطل . سرعان ما عاد الرجل مهرولا وهو يقول :
ـ جاءوا، كيف اهتدوا إلى بهذه السرعة؟

وجرى فى الحديقة نحو السور الغربى، وسرعان ما رجع وهو يقول فى هياج:

- إنى محاصر..

وجرى نحو المبنى الصغير. ورنوت إلى النجوم فى سلام نسبى. ولكن صوتا مزعجا ترامى صياحه وهو يقول:

- سلم نفسك، عثمان خليل.. سلم نفسك، أنت محاصر من جميع الجهات.

لم أسمع جوابا واتجهت عيناى نحو مصدر الصوت الغارق فى بهيم الليل وغمغمت:

- الشيطان يتمادى فى عبثه ولكنى لست محاصرا، بل أنا حر..

وترامت الأصوات من جميع النواحى المحدقة بالسور، واقتربت رويدا، وصاح صوت أشد إزعاجًا من الأول:

- المقاومة لا جدوى لها ولا معنى لها..

ولم يرد المختبئ، وغمغمت:

- كل شىء له معنى.

وإذا بأضواء كشافة تجتاح البيت من جميع الجهات فتجعله شعلة من نور، وضاق الخناق على المكان كله، وصاح الصوت:

- سلم يا عثمان، اخرج رافعا ذراعيك..

وتأوهت متمتما:

- متى تسكت عنى أصوات الشياطين؟!

وصاح الصوت الرهيب:

- ألا ترى أن أى مقاومة عبث؟!

فهمست:

ـ لا شيء في الوجود عبث . .

واندفعت أقدام مصحوبة بصياح في الناحية الخلفية للبيت الصغير . وخرج شبح إلى الشرفة الأرضية المتصلة بالحديقة وزعق :

ـ انتهى . . انتهى . . قبض عليه . . وانتهى كل شيء .

وهمست :

ـ ليس لشيء نهاية .

واندفع عديد من الأشباح في الحديقة راكضين نحو البيت . وعثر أحد الراكضين بساقي فسقط على وجهه ، وصاح :

ـ حذار ، يوجد آخرون . .

وانطلق عيار ناري . وندت عني تأوهة عميقة . وشعرت بألم حاد كأنه ألم حقيقي لا عبث شيطان بحلم .

وتنهدت في إعياء وفتحت عيني . ماذا يعني هذا الحلم إلا أنني لم أبرأ بعد . وكيف أفكر فيك طيلة يقظتي ثم تعبث بمنامي الأهواء ولكن مهلا . أين أنا؟ أين النجوم؟ أين أعشاب الحديقة وأشجار السرو؟ هذه سيارة تنطلق . وأنا راقد على مقعد طويل جانبي يجلس على طرفه رجل . وعلى المقعد المواجه لي في الجانب الآخر من السيارة يجلس عثمان بين رجلين . لا شك أني ما زلت أحلم . وثمة ألم في منكبي يدفعني إلى التأوه . وقال صوت :

ـ من المؤكد أن الرصاصة اخترقت الترقوة ولكنه جرح سطحي لا خطر منه .

ترى ماذا يعني هذا الحلم؟ وأين يذهب بي؟ ومتى يسكن الألم الحاد بمنكبي؟ ومتى أنتصر على الشيطان وعبثه؟ ومتى تختفي من أحلامي الدنيا ومن فيها؟ وتأوهت رغما عني فقال صوت :

ـ اصبر قليلا .

فقلت بتحد :

ـ زولوا لأرى النجوم .

ـ أنت بخير .

فقلت بعناد :

ـ إنى بخير ما انتصرت عليكم .

ـ اهدأ ، سيراك الطبيب فورا .

ـ لا حاجة بى إلى إنسان .

ـ لا تجهد نفسك بالكلام .

فقلت بإصرار :

ـ لقد تكلمت الصفصافة ورقصت الحية وغنت الخنافس .

ومضى يردد ذلك بصوت خافت . وأغمض عينيه ولكن الألم لم يسكن . وتساءل متى يرى وجهه؟ ألم يهجر الدنيا من أجله؟

* * *

خامره شعور بأن قلبه ينبض فى الواقع لا فى الحلم ، وبأنه راجع فى الحقيقة إلى الدنيا .

ووجد نفسه يحاول تذكر بيت من الشعر . متى قرأه ، وأى شاعر غناه؟

وتردد الشعر فى وعيه بوضوح عجيب :

ـ إن تكن تريدنى حقا فلم هجرتنى؟ !

أعمال نجيب محفوظ

١ ـ	مصر القديمة	ترجمـــة	١٩٣٢
٢ ـ	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ	رادوبيـــس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ	كفاح طيبـة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ	القاهرة الجديدة	روايـــة	١٩٤٥
٧ ـ	خان الخليلى	روايـــة	١٩٤٦
٨ ـ	زقاق المدق	روايـــة	١٩٤٧
٩ ـ	الســـراب	روايـــة	١٩٤٨
١٠ ـ	بداية ونهاية	روايـــة	١٩٤٩
١١ ـ	بين القصرين	روايـــة	١٩٥٦
١٢ ـ	قصر الشوق	روايـــة	١٩٥٧
١٣ ـ	الســـكرية	روايـــة	١٩٥٧
١٤ ـ	اللص والكلاب	روايـــة	١٩٦١
١٥ ـ	السمان والخريف	روايـــة	١٩٦٢
١٦ ـ	دنيـــا اللـــه	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ	الطـــريق	روايـــة	١٩٦٤

١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالي ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ -	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ -	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ -	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ -	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ -	التنظيـم السـرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ -	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ -	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ -	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ -	صبـاح الـورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ -	قشـتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ -	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ -	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ -	القـرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ -	صـدى النسيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ -	فتـوة العطـوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ -	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤

